الإشراف الفني زهير الحمو

فلاديمير نابوكوف

ماشينكا

رِوَايَة عَالَمِيَّة

تـرجَـمَة
يُوسُف حلّاق

منشـــورات وزارة الثقـــافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٩

العنوان الأصلي للكتاب:

ВЛАДИМИР НАБОКОВ

Машенька

ماشينكا: رواية عالمية/ فلاديمير نابوكوف؛ ترجمة يوسف حلاق. - دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٩٩. - ١١٢ص؛ ٢٤ سم. - (روايات عالمية؛ ٧٣).

١- ٧٣ر٧٩١ ر ت ا ب م ٢- العنوان ٣- نابوكوف
٤- حلاق ٥- السلسلة

مكتبة الأسد

الايداع القانوني: ع- ١٧٥٣ / ١٠ / ١٩٩٩

روايات عالمية
«٧٣»

إذ أذكر قصص السنين الخوالي،
وأذكر حبي القديم...

بوشكين

﴿ ١ ﴾

- ليف غليفو.. ليف غليبوفتش؟ ياله من اسم ياأبتاه، اللسان ممكن أن ينخلع.

- ممكن، - أجاب غانين بقدر من البرودة مثنّياً وهو يحاول أن يتبيّن في الظلمة المفاجئة وجه محدثه. كان متوتراً جراء الوضع السخيف الذي وجدا كلاهما نفسيهما فيه وهذا الحديث الاضطراري مع إنسان غريب.

- لم استعلم عن اسمك هكذا، دون قصد، - تابع الصوت دون مبالاة.
- في رأيي أن كل اسم...

- هيّا، سأضغط الزر مرّة أخرى، - قاطعه غانين.

- اضغط. أخشى ألا يساعدك هذا. اسمع: كل اسم يُلْزم. ليف وغليب اتفاق معقد ونادر. إنه يستدعي منك نشوفة، صلابة، أصالة. اسمي أنا أكثر تواضعاً، أما اسم زوجتي فبسيط للغاية - ماريا. وبالمناسبة اسمح لي أن أقدّم نفسي - ألكسي ايفانوفتش ألفيروف. العفو، يبدو أني دست على رجلك...

- تشرفنا، - قال غانين وهو يتلمس في العتمة اليد التي انغرزت في طرف كمّه. - مارأيك، هل سنبقى طويلاً هنا؟ آن لنا أن نفعل شيئاً. اللعنة...

– فلنجلس على المقعد وننتظر، – رنّ من جديد فوق أذنه تماماً صوت نشط وملحاح. – البارحة حين وصلتُ اصطدمت بك في الممر. وفي المساء سمعتك تسعل خلف الجدار، ومن صوت سعالك قرّرتُ على الفور: ابن البلد. قل لي: هل تعيش في هذا النزل من فترة طويلة؟

– من فترة طويلة. هل معك كبريت؟

– لا. أنا لاأدخن. النزل قذر قليلاً، مع أنه روسي. أنا، لو تعرف، في غاية السعادة: زوجتي تصل من روسيا. أربع سنوات – هذه ليست مزحة... أجل، والآن لم يعد أمامنا انتظار طويل. اليوم هو الأحد.

– يالها من عتمة...، – قال غانين وفرقع بأصابعه. – تُرى كم الساعة الآن؟

تنهّد ألفيروف بصوت مسموع؛ هبّت رائحة دافئة رخوة – رائحة رجل كهل ليس في تمام عافيته. هناك شيء ما حزين في رائحة كهذه.

– وعلى هذا بقيت ستة أيام. أنا أفترض هكذا: ستصل يوم السبت. البارحة تلقيت منها رسالة. كتبت العنوان بصورة جدّ مضحكة. من المؤسف أن تكون مثل هذه العتمة وإلا أريتك العنوان. ماالذي تتلمسه هناك ياعزيزي؟ هذه النوافذ لاتنفتح.

– لا مانع لدي من تحطيمها، – قال غانين.

– دعك من هذا، ياليف غليبوفتش. أليس من الأفضل أن نلعب لعبة صغيرة؟ أنا أعرف ألعاباً صغيرة مدهشة، بل أنا نفسي أؤلّفها. فكّر مثلاً في عدد من رقمين. حاضر؟

– عفِنّي، – قال غانين وضرب الجدار بقبضته ضربتين.

– البواب يغط في النوم منذ فترة طويلة، – طفا صوت ألفيروف، – بحيث لايجدي حتى الدقّ نفعاً.

- لكن وافقني على أننا لانستطيع المكوث طوال الليل هنا.

- لامفرّ من ذلك على مايبدو. لكن ألا تظن ياليف غليبوفتش أن في لقائنا شيئاً رمزياً؟ عندما كنا لانزال في البرّ لم يكن أحدنا يعرف الآخر ثم حدث أن عدنا في ساعة واحدة ودخلنا هذا المكان معاً. وبالمناسبة يالها من أرضية رقيقة! وتحتها بئر سوداء. إذاً كنت أقول: دخلنا هنا صامتين دون أن يكون أحدنا يعرف الآخر، وصامتين طفونا الى فوق، وعلى حين غرّة - قِفْ. وعمّت الظلمة.

- فيم الرمز تحديداً؟ - سأل غانين بتجهم.

- في التوقف هذا، في الجمود، في هذه القمة. وفي الانتظار. اليوم على الغداء، هذا.. ماإسمه.. الكاتب العجوز... أجل بورتنياغين - كان يناقشني في معنى حياة الاغتراب التي نعيشها، في معنى انتظارنا العظيم. أنت لم تتغدّ اليوم هنا ياليف غليبوفتش؟

- كلا، كنت خارج المدينة.

- الآن الوقت ربيع. لابد أن يكون المكان هناك لطيفاً.

غاب صوت الفيروف لحظات وحين بان من جديد كان رخيماً بشكل مزعج لأن الفيروف كان على الأرجح يبتسم وهو يتكلم:

- حين تأتي زوجتي، أنا أيضاً سأذهب معها الى الضواحي. إنها تعبد النزهات. قالت لي ربة النزل إن غرفتك ستكون خالية بحلول يوم السبت؟

- بالضبط تماماً، - أجاب غانين بلهجة جافة.

- ستغادر برلين نهائياً؟

أومأ غانين وقد نسي أن الإيماءة لاتُرى في العتمة. جلس الفيروف على الدكة متململاً، تنهّد مرتين ثم أخذ يصفر بصوت خافت وسكّري. كان يصمت قليلاً ثم يعاود الصفير. مرّت عشر دقائق. وبغتة طقطق شيء ما فوق.

– هذا أفضل، – ابتسم غانين ابتسامة خفيفة ساخرة.

وفي اللحظة نفسها توهّج في السقف مصباح صغير، وانغمر القفص الهادر والسابح الى فوق كلّه بضوء أصفر.

رمش الفيروف بعينه وكأنه يصحو من نوم. كان يرتدي معطفاً عتيقاً واسعاً سيء الصنع ترابيّ اللون ويمسك بيده قبعة سوداء اللون. كان شعره الفاتح النادر قد تشعّث قليلاً وكان في ملامحه شيء ما رخيص، انجيلي معسول – في لحيته الصغيرة المذهبة، في استدارة رقبته النحيلة، التي كان يسحب عنها شالاً مبرقشاً.

علِقَ المصعد بعد اهتزاز بعتبة الطابق الرابع وتوقف.

– عجائب غرائب، – قال الفيروف مبتسماً بعد أن فتح الباب. – ظننت أن أحدهم فوق رفعنا، لكن لاأحد هنا. تفضل ياليف غليبوفتش، أنا بعدك.

لكن غانين عبس ولكزه لكزة خفيفة ثم خرج هو نفسه وصفق الباب الحديدي الصغير بعصبية.

لم يحدث من قبل أبداً أن كان على هذه الدرجة من توتّر الأعصاب.

– عجائب غرائب، – كرّر ألفيروف القول، – صعدنا فلا أحد هنا. هذا أيضاً رمز...

﴿ ٢ ﴾

كان النزل روسياً والى ذلك غير مريح. ما كان غير مريح أساساً أنه كانت تسمع طول النهار وقسم كبير من الليل قطارات سكك حديد المدينة ولهذا كان يبدو وكأن النزل كله يمضي ببطء الى مكان ما. وكان المدخل حيث تُعلق مرآة داكنة ذات حامل للقفازات وينتصب صندوق طويل من خشب البلّوط يسهل أن

تصطدم به ركبة الداخل ـ كان هذا المدخل يتقلّص شيئاً فشيئاً لينتهي الى ممرّ عارٍ بالغ الضيق. وعلى كل جانب منه ثلاث غرف ذات أرقام سود ضخمة ملصقة على الباب: كانت مجرّد أوراق انتزعت من تقويم قديم ـ الأيام الستة الأولى من شهر نيسان: في غرفة أول نيسان، وهي أول باب الى اليسار، كان ينزل الآن ألفيروف، وفي الثانية غانين وفي الثالثة صاحبة النزل بالذات، ليديا نيقولايفنا دورنْ أرملة تاجر ألماني جاء بها قبل عشرين عاماً من ساربتّا وتوفي العام قبل الماضي من التهاب في الدماغ. في الغرف الثلاث الى اليمين ـ من أربعة الى ستة نيسان ـ كان يعيش الشاعر الروسي العجوز انطون سيرغييفتش بودتياغين وكلارا وهي فتاة ممتلئة الصدر ذات عينين رائعتين، بنيتين مائلتين الى الزرقة قليلاً، وأخيراً، في الغرفة السادسة عند انعطاف الممرّ، راقصا الباليه كولين وغورنوفتسوف وكلاهما، على طريقة النساء، مضحك ونحيف ذو أنف مذرور بالمسحوق وفخذين مفتولتي العضل. في نهاية القسم الأول من الممر كان هناك مطعم وعلى الجدار قبالة الباب لوحة حجرية تمثل «العشاء السري»، وجماجم أيّل صفر ذات قرون على الجدار الآخر فوق بوفيه منفوخة الكرش يعلوها إناءان من الكريستال كانا في وقت ما أنظف غرضين في الشقة كلها، لكنهما بهتا الآن بفعل الغبار الأزغب. وينحرف الممر عند بلوغه المطعم بزاوية قائمة الى اليمين، وهناك كان المطبخ وغرفة صغيرة للخدم وحمام قذر ومرحاض على بابه صفران قرمزيّان حُرما عَشْرتيهما القانونيتين اللتين كانا يشكلان معهما يومي أحد مختلفين في تقويم الطاولة العائد للسيّد دورنْ ـ وهذا كله كان يتخذ شكل متاهات مأساوية غير زكية الرائحة. بعد شهر من وفاته قامت ليديا نيقولايفنا، وهي امرأة صغيرة ثقيلة السمع لاتخلو من غرابة أطوار، باستئجار شقة خالية وتحويلها الى نزل مبدية في ذلك قدرة على الابتكار غير عادية ومرعبة بعض الشيء من حيث توزيع أغراض الاستعمال اليومي القليلة التي كانت نصيبها من التركة. تفرقت الطاولات والخزائن ذات الصرير والمتكآت غير المستوية في الغرف التي كانت تُعدُّ لتأجيرها. وعلى هذا فبعد أن

تفرّقت ابيضَّتْ على الفور واكتست منظراً كئيباً غير معقول كما عظام هيكل جسم مفككة . طاولة المرحوم ، وهي كتلة ضخمة من البلّوط ذات محبرة حديدية على شكل ضفدعة وصندوق كعنبر سفينة في الوسط ، ظهرت في الغرفة الأولى حيث كان يقطن الفيروف في حين راح الكرسيّ الدوار الذي اشتُري والطاولة إياها معاً كاليتيم الى الراقصين اللذين يعيشان في الغرفة السادسة . زوج الأرائك الخضر هو أيضاً افترق : إحداهما كانت تتضجّر عند غانين أما الأخرى فكانت تجلس عليها صاحبة النزل نفسها أو كلبها العجوز القصير القوائم وهو كلب سمين ذو بوز أشيب وأذنين متدليتين مخمليتين ، في طرفيهما مثل هدب الفراشة . وعلى الرفّ في غرفة كلارا تنتصب بهدف الزينة بضع من الأجزاء الأولى من الموسوعة ، في حين كانت بقية الأجزاء من نصيب بودتياغين . كما كان من نصيبها أيضاً المغسلة الوحيدة اللائقة ذات المرآة والخزن ، أما في الغرف الأخرى فلم يكن سوى طست سميك عليه فنجان من الصفيح مع إبريق من الصفيح أيضاً . لكن كان لابدّ من شراء أسرّة وهذا مافعلته السيدة دورن وهي محروقة القلب ، لا لأنها كانت بخيلة بل لأنها كانت تشعر بنوع من الهيجان اللطيف الحلو وبنوع من الزهو كسيدة مدبّرة بفعل الطريقة التي يتم بها توزيع أثاثها السابق ، في حين أحست الآن بالخيبة لأنه تعذّر نشر سرير النوم المزدوج الذي بات يفيض الآن كثيراً عنها ، هي الأرملة ، الى الكمية اللازمة من الأجزاء . كانت هي نفسها ترتب الغرف كيفما اتفق ، أما الطبخ فلم تكن تفقه فيه شيئاً ولهذا احتفظت بطبّاخة – غول السوق ، سيدة فاقعة الحمرة ، ضخمة كانت تضع أيام الجمعة قبعة قرمزية وتندفع الى الأحياء الشمالية تتاجر ببدانتها المغرية . كانت ليديا نيقولايفنا تخشى دخول المطبخ ، بل إنها كانت على العموم امرأة هادئة وجولاً . وحين كانت تعدو في الممر وهي تدلف برجليها الصغيرتين الكليلتين كان يتهيأ للنزلاء أن هذه الامرأة الصغيرة الشائبة الفطساء الأنف ليست ربة النزل على الإطلاق ، إنما ببساطة مجرّد عجوز حمقاء وجدت نفسها فجأة في شقة غريبة . كانت تتخذ شكل دمية من خرق حين كانت تجمع

بمكنستها في الصباح الأوساخ بسرعة من تحت الأثاث ثم تختفي في غرفتها، وهي أصغر الغرف، وهناك كانت تقرأ كتباً ألمانية صغيرة مهترئة أو تتصفح أوراق المرحوم زوجها التي لم تكن تفهم منها شيئاً. وحده بودتياغين كان يعرّج على هذه الغرفة، يمسح بيده ظهر الكلب الأسود اللطيف، يقرصه في أذنيه أو في ثؤلول على بوزه الأشيب، يحاول جعل الكلب يمدّ قائمته العوجاء، ويحدّث ليديا نيقولايفنا عن مرض شيخوخته المؤلم، وأنه منذ فترة طويلة، من نصف عام يسعى للحصول على تأشيرة الى باريس حيث تعيش بنت أخيه، وحيث الرغيف الطويل المقرقش والنبيذ الأحمر جدّ رخيصين. كانت العجوز تهزّ رأسها وأحياناً تسأله عن النزلاء الآخرين ولاسيما عن غانين الذي كان يتهيأ لها أنه لايشبه أبداً كل الشباب الروس الآخرين الذي حلّوا عندها في النزل. كان غانين يستعد الآن للسفر بعد أن أقام عندها ثلاثة أشهر، بل قال إنه سيخلي الغرفة يوم السبت هذا، لكنه استعدّ للسفر من قبل عدّة مرات، وكان يرجئه، يغيّر قراره. وكانت ليديا نيقولايفنا تعرف من كلام الشاعر العجوز الناعم أن لغانين صديقة. وهنا بالذات لبّ الموضوع.

بات في الفترة الأخيرة رخواً ومتجهماً هو الذي كان حتى فترة قريبة جداً يستطيع، وليس أسوأ من أي بهلواني ياباني، أن يمشي على يديه باسطاً رجليه بتناسق ومتحركاً كأنه شراع، وكان يستطيع رفع الطاولة بأسنانه وقطع الحبل على العضلة ذات الرأسين المشدودة. وفي جسمه كانت تضطرم نار دائمة ـ رغبة في القفز فوق السور، في خلع العمود وباختصار «الخبط» كما كنا نقول في يفاعتنا. والآن كأنما ارتختْ عزقة ما، حتى صار ظهره يتقوّس، واعترف هو نفسه لبودتياغين أنه يعاني من الأرق «كامرأة». ولقد نام نوماً رديئاً في ليلة الأحد ـ الاثنين تلك بعد تلك العشرين دقيقة التي أمضاها مع السيد الطويل اللسان في المصعد المتوقف.

يوم الاثنين جلس طويلاً، وهو عار، شابكاً يديه الممددتين الباردتين قليلاً بين ركبتيه وقد صعقته فكرة أن عليه اليوم أيضاً أن يلبس القميص والجوارب

والبنطال – كل هذه القذارة المشبعة عرقاً وغباراً ـ كان يفكر في كلب السيرك الذي يبدو وهو يلبس لباس البشر ذليلاً، حقيراً حتى الرعب، حتى الغثيان. كانت هذه الرخاوة ناتجة في بعضها عن البطالة. فما كان عليه الآن أن يجهد نفسه بشكل خاص، لأنه جمع أثناء الشتاء مبلغاً لم يبق منه الآن، على أية حال، إلا مائتا مارك تقريباً، لاأكثر: فهذه الأشهر الثلاثة الأخيرة كانت مُكلفة بعض الشيء.

في العام الفائت وبعد وصوله الى برلين وجد على الفور عملاً وظلّ يعمل حتى كانون الثاني ـ قام بعمل كثير ومتنوّع: عرف العتمة الصفراء لتلك الساعة الباكرة التي يمضي فيها الواحد الى المعمل، عرف أيضاً كيف تؤلم الرجلان بعد أن يقطع الواحد هرولةً عشرة فراسخ متلوّية بين الطاولات في مطعم «بير غوروا» والصحن في يده؛ وعرف أعمالاً شاقة أخرى، أخذ الى محلّ «الكوميسيون» كل ما كانت تقع عليه يده من الكعك ومستحضر «البريانتين» وحتى الماس. لم يكن يأنف من شيء: بل إنه كالكثير منّا باع أكثر من مرّة ظلّه. وبعبارة أخرى كان يذهب للتصوير بصفة ممثل صامت الى خارج المدينة حيث كانت الواجهات المريعة لمصابيح مسلطة كالمدافع على جمهرة لامعة وجامدة من الممثلين تمور في صأصأة صوفية بالضوء داخل عنبر حقير وتتلظّى بريقاً أبيض قاتلاً منيرة الشمع المصبوغ للوجوه المتجمدة ثم تنطفىء بعد أن تطقطق– لكن الفجر المائل للحمرة: حياؤنا الإنساني –كان يستمر طويلاً يحترق في هذه الزجاجات المعقدة. الصفقة أُنجزت، وظلالنا التي لااسم لها أطلقت في العالم.

مابقي من نقود كان يكفيه لمغادرة برلين. لكن عليه من أجل ذلك أن يقطع علاقته بلودميلا. أما كيف يقطعها فلم يكن يعرف. وعلى الرغم من أنه أمهل نفسه أسبوعاً وصرّح لربة النزل أنه قرر المغادرة نهائياً يوم السبت، إلا أن غانين كان يشعر أن لا هذا الأسبوع ولا الأسبوع القادم سيغيّران شيئاً. وبالمناسبة كان الشوق الى غربة جديدة يعذّبه على نحو خاص أيام الربيع تحديداً. كانت نافذته تطل على رصيف سكة الحديد ولهذا كانت امكانية السفر تثيره بلجاجة. كل خمس دقائق

كان البيت يبدأ يتحرك في هدير مكبوت، ثم كانت ترتفع كتلة ضخمة من الدخان أمام النافذة حاجبة النهار البرليني الأبيض ثم تذوب ببطء، وعندها كانت تُرى من جديد مروحة الرصيف الذي يأخذ يضيق في البعيد بين الجدران الخلفية السود كأنما المبتورة للبيوت، وفوق هذا كله سماء شاحبة كما الحليب اللوزي.

ربما كان أيسر على غانين لو أنه أقام في الجهة المقابلة من الممرّ، في غرفة بودتياغين أو كلارا أو الراقصين: كانت النوافذ هناك تطل على شارع مُضجر. صحيح أن هذا الشارع كان يمتد فوقه بالعرض جسر خطوط حديدية، أنما لم يكن فيه بالمقابل بُعد شاحب، مغرٍ. كان هذا الجسر امتداداً لسكك الحديد التي يمكن رؤيتها من غرفة غانين، ولم يكن بوسع غانين أبداً أن يتخلص من الشعور بأن كل قطار يمرّ بشكل غير مرئي عبر كتلة البيت ذاته: هاهو قد دخل من ذلك الجانب، أزيزه الشفاف يهز الحائط، ينساب دفعةً دفعة في ثنايا السجادة العتيقة، يهزّ الكأس على المغسلة، ويخرج أخيراً برنين بارد من النافذة - وعلى الفور ترتفع وراء الزجاج سحابة من الدخان ثم تنحسر فإذا بقطار المدينة الذي لفظه البيت يُرى من جديد: عربات زيتونية كامدة ذات بزّازات غُصنيّة كالحة على طول السطوح، وقاطرة بخارية، لكونها لم تُشدّ الى الطرف اللازم، تنكص على أعقابها بسرعة، تجذبها الى البعد الأبيض بين الجدران العمياء التي كان سوادها السخامي ينقشر في مكان أو يُرقّط في آخر بصور الإعلانات العتيقة. هكذا كان البيت كله يعيش في مجرى حديدي.

- لو أسافر، - أخذ غانين يتمطّى بملل لكنه توقّف على الفور: وما العمل مع لودميلا؟ سخر من نفسه لأنه بات رخواً الى هذا الحدّ. فيما مضى (حين كان يمشي على يديه أو يقفز فوق خمسة كراس) كان يستطيع لا أن يتحكّم فقط بل ان يتلاعب بقوّة إرادته. كان يمرّنها مراراً وتكراراً، يُجبر نفسه مثلاً على النهوض من سريره في منتصف الليل كي يخرج الى الشارع ويلقي عقب سيجارة في صندوق البريد. والآن لم يعد بمقدوره أن يقول لإمرأة إنه ما عاد يحبها. قبل ثلاثة أيام

مكثت عنده خمس ساعات؛ البارحة، الأحد أمضى النهار كله على البحيرات خارج برلين معها: لم يستطع رفض طلبها وقام بهذه النزهة السخيفة.

كان الآن يكره كل شيء في لودميلا: الخصل الصفر المقصوصة «على الموضة» والخطين من الشعيرات الداكنة غير المحلوقة في الخلف على قذالها الضيق وقتامة حاجبيها الفاترة والأهم من هذا شفتاها المطليتان حتى درجة اللمعان الليلكي. كان يشعر بالنفور والضجر حين كانت تقول له بعد جولة الحبّ الآلي وهي ترتدي ثيابها وتغمز ممّا كان يحيل عينيها على الفور الى عينين موبّرتين غير مريحتين: «تعرف، أنا مرهفة بحيث ألاحظ على الفور ساعة تأخذ في حبّي أقل من السابق». لم يكن غانين يردّ، بل كان يستدير نحو النافذة حيث كان يتعالى جدار أبيض من الدخان، إذاك كانت تتضاحك في غنّة وتناديه بصوت هامس أصم: «هيا، تعال...». إذاك كان بودّه أن يفرك يديه بحيث تشقشق الغضاريف بشجى وعذوبة وأن يقول لها في هدوء: «إليك عني، ياشيخة، الوداع». لكنه بدلاً من ذلك كان يبتسم وينحني نحوها. كانت تهيم بأظافرها الحادة كأنما المزيّفة في صدره وتمط شفتيها وتطرف برموشها الفحمية محاكية بذلك، كما كان يتهيأ لها، فتاة مستاءة أو مركيزة نزوية. كان يشعر برائحة عطرها التي كان فيها شيء ما غير نظيف، غير نضر، شيء ما كهل على الرغم من أن عمرها لم يكن يتعدى الخامسة والعشرين. كان يمس بشفتيه جبينها الصغير، الدافيء فإذا بها تنسى كل شيء – كذبتها التي كانت تجرّها وراءها دائماً كرائحة عطرها، وكذب الكلمات الطفولية والمشاعر المتأنقة التي هي من غراس شاعرين يقال لهما بو وبودلير كانت تدعي أنها تحبهما بعنف مع أنها لم تقرأهما أبداً، كانت تنسى كل ما كانت تنوي الإغراء به بما في ذلك صفرة الشعر المموّضة والمساحيق الداكنة والجوارب الحريرية بلون لحم الخنزير - كانت ترتمي على غانين بكل جسمها الضعيف البائس الذي هو في غنى عنه وتلقي برأسها الى الوراء.

شعر وقد انتابه إحساس بالملل والخجل كيف أن هذا الحنان الذي لامعنى له – هذا الدفء الحزين المتبقي هناك حيث مرق الحب في فترة ما للحظة خاطفة – يجعله يلتصق دون اندفاع بمطّاط شفتيها المستسلمتين الأرجواني، لكن هذا الحنان لم يكبت صوتاً هادئاً هازئاً ناصحاً: «وماذا لو أرمي بها الآن الى الخارج؟»

تنهّد وتطلع بابتسامة هادئة الى وجهها المرفوع، ولم يستطع أن يجيبها بشيء حين تشبثت بكتفيه وأخذت تتوسل إليه بصوت سريع لابذاك الهمس الأنفي السابق وقد استغرقت كلّها في كلمات: «ألا قلت لي، أخيراً، أنت تحبني؟» لكنها تذكرت مرّة أخرى وقد لحظت في وجهه شيئاً ما ـ ظلاً مألوفاً، قسوة لاإرادية – أنه ينبغي إغراؤه– بالرهافة، بالعطور، بالشعر– وأخذت تصطنع لنفسها صورة الفتاة المسكينة حيناً والعاهرة المتأنقة حيناً آخر. ويأخذ الضجر بغانين من جديد فيروح يقطع الغرفة بطولها من النافذة حتى الباب ذهاباً وإياباً وهو يتثاءب حتى تكاد تسقط دموعه. بينما كانت هي تراقبه خلسة في المرآة وهي ترتدي قبّعتها.

كانت كلارا الممتلئة الصدر، المتشحة كلها بالحرير الأسود، الفتاة المريحة جداً، تعرف أن صديقتها تتردّد على غانين، وكان يصيبها الملل والحرج حين كانت هذه تحدثها عن حبّها. كان يبدو لكلارا أن هذه العواطف يجب أن تكون أهدأ، دونما زهرات سوسن ولا زعقات كمان. لكن الأمر كان يضحي أصعب احتمالاً حين تأخذ صديقتها تنقل إليها وهي تغمز وتنفث دخان السيجارة من خياشيمها تفاصيل طازجة ومحدّدة بشكل مخيف تأخذ بعدها كلارا ترى منامات مريعة ومخجلة. وفي الفترة الأخيرة كانت تتحاشى لودميلا خشية أن تفسد عليها صديقتها في نهاية المطاف ذلك الشيء الضخم والدائم البهجة الذي يُسمى بكلمة مليحة «الحلم». وجهُ غانين الصارم والمتشامخ قليلاً، وعيناه الرماديتان ذاتا السهمين اللامعين الموزعين حول بؤبؤين كبيرين، والحاجبان الكثّان الداكنان جداً اللذان كانا يشكلان حين يقطّب أو يصغي باهتمام خطاً أسود واحداً متصلاً، لكنهما كانا، بالمقابل، ينفرجان وينبسطان كجناحين خفيفين حين كانت ابتسامة

نادرة تكشف للحظة أسنانه البيضاء البليلة الرائعة، هذه الملامح الحادة كانت تعجب كلارا حتى أنها كانت ترتبك في حال وجوده وتتكلم لا كما كان بودّها أن تتكلم، وتربّت طوال الوقت على موجات تسريحتها الكستنائية التي كانت تغطي نصف أذنها أو كانت تسوّي الثنايا السود على صدرها مما كان يجعل شفتها السفلى تبرز الى الأمام وتتلامح ذقن ثانية. وعلى أي حال فهي لم تكن تلتقي بغانين كثيراً، مرّة في اليوم على الغداء، ومرّة واحدة فقط تعشّت معه ومع لودميلا في مشرب البيرة الكريه ذاك حيث كان يأكل في المساء النقانق مع الكرنب أو لحم الخنزير البارد. وعلى الغداء في مطعم النزل الكئيب كانت تجلس قبالة غانين إذ أن صاحبة النزل وزّعت نزلاءها بنفس الترتيب تقريباً الذي تتوزع به غرفهم: وعلى هذا كانت كلارا تجلس بين بودتياغين وغورنوتسفيتوف وغانين بين ألفيروف وكولين. وكانت الهيئة الصغيرة، السوداء، المفرطة التأدب في كآبة، للسيدة دورن نفسها على طرف الطاولة بين الوجهين الجانبيين المتواجهين للراقصين المطليين بالمساحيق والمتصنعين اللذين كانا يشرعان في الحديث معها بسرعة مفرطة وبتصعيرات عصفورية، كانت هذه الهيئة تبدو بائسة، ضائعة وغير مناسبة بتاتاً. وكانت هي نفسها تتكلم قليلاً محرجة بسبب صممها الخفيف، وكانت تهتم فقط بأن تقوم إيريكا الهائلة بجلب الصحون وحملها في الوقت المناسب وهكذا كانت يدها الصغيرة المتغضنة كغصن يابس لاتني ترتفع الى الجرس المعلّق لتهبط من جديد وهي تبرق بصفرة مبيضّة.

حين دخل غانين المطعم يوم الاثنين في حوالي منتصف الثالثة كان الجميع قد حضروا. ابتسم له ألفيروف بترحاب حين رآه ونهض قليلاً عن مقعده لكن لم يمدّ له يده بل أومأ بصمت وأخذ مكانه الى جانبه وهو يلعن سلفاً جاره الملحاح. بودتياغين، العجوز الوديع اللطيف، الذي كان يأكل كالطفل وهو يشرق بصوت عال مثبتاً بيسراه الفوطة المدسوسة وراء الياقة تطلّع من فوق زجاج نظارته الأنفية الى غانين ثم عكف من جديد على حسائه وهو يرسل تنهيدة مبهمة. كان غانين قد حكى له في لحظة صراحة ذات مرة عن حب لودميلا الشديد الوطأة، لكنه كان

يأسف على هذا الآن. كولين، جاره عن اليسار، ناوله بحيطة مرتعشة صحن حساء ورمقه الى هذا بنظرة استمالة وبابتسامة من عينيه الغريبتين الساجيتين الحانيتين بحيث شعر غانين بالحرج، فيما كان صوت الفيروف العالي المدهون بالزبدة يتدفق من اليسار معترضاً على شيء ما قاله بودتياغين الجالس قبالته.

- عبثاً تشتم وتسبّ ياانطون سيرغييفتش. بلد في غاية التمدّن والثقافة. لايقارن ببلدنا البائس.

لمع زجاج نظارة بودتياغين، واستدار الى غانين.

- هنئني، اليوم أرسلوا الي التأشيرة. كما لو أنهم منحوك وسام شرف وطلبوا إليك الحضور الى رئيس جمهورية...

كان ذا صوت لطيف على نحو غير عادي، هادىء لايعلو أبداً، ونبرة ناعمة ربداء. وكان وجهه الأملس الممتلىء ذو الفرشاة الشائبة تحت شفته السفلى تماماً والذقن المتراجعة كأنما مغطّى بسفعات متصلة مائلة الى الحمرة، وكانت الغضون البشوشة كأنما تنطلق من العينين الذكيتين، الصافيتين. أما في منظره الجانبي فكان يشبه خنزيراً بحرياً كبيراً شائباً.

- يسرّني ذلك، - قال غانين، - ومتى ستسافر.

لكن ألفيروف لم يترك للعجوز مجالاً للإجابة، إذ تابع وهو يهزّ كالعادة رقبته النحيلة ذات الشعيرات الذهبية والتفاحة الضخمة الطالعة النازلة:

- أنصحك بالبقاء هنا. ماالسيء هنا. هنا خطّ مستقيم، إن صح القول. فرنسا أقرب الى أن تكون خطاً متعرجاً أما بلدنا روسيا فبؤرة التواءات وتعرّجات. المكان هنا يعجبني: العمل ممكن والتسكع في الشوارع شيء لطيف. وسأبرهن لك رياضياً أنه كان للواحد منا أن يعيش..

- لكنني سبق وقلت لك، - قاطعه بودتياغين بلين: - تلال من الأوراق، توابيت كرتونية، أضابير. أضابير لانهاية لها! الرفوف تحتها تتكسر بسهولة!

وموظف الشرطة كاد يفطس من الجهد وهو يبحث عن اسمي. أنت بشكل عام لاتستطيع أن تتصور (لدى نطقه «أن تتصور» هزّ بودتياغين رأسه بتثاقل وشجى) كم على الواحد أن يعاني كي يحصل على حقّ المغادرة. كم ملأت من الاستمارات وحدها. . اليوم كنت أظن أنهم سيوقعون لي على تأشيرة الخروج. . لكن أين أنا من هذا كله. . . أرسلوني أتصوّر، والصور لن تكون جاهزة إلا في المساء.

- هذا سليم تماماً، - هزّ الفيروف رأسه، - هكذا يجب أن يكون في بلد يحترم نفسه. هذه ليست كاللخبطة التي في روسيا. هل انتبهت مثلاً الى المكتوب على الأبواب الأمامية؟ «للسادة فقط». هذا رائع. وعلى العموم يمكن التعبير عن الفرق ولنقل بين بلدنا وهذا على النحو التالي: تخيّل أولاً خطاً منحنياً وعليه. . .

التفت غانين الذين أعرض عن الاستماع الى هذا الحديث الى كلارا الجالسة قبالته:

- البارحة طلبتْ إلي لودميلا بوريسوفنا أن أبلغك بأن تتصلي بها فور عودتك من الخدمة. هذا بخصوص المصور السينمائي على مايبدو.

فكّرت كلارا في حيرة: «كيف يتحدث عنها بهذه البساطة. . فهو يعرف أني أعرف. . .».

سألته من قبيل اللياقة:

- آه، هل رأيتها البارحة؟

فرفع غانين حاجبيه مندهشاً ثم تابع طعامه.

- أنا لاأفهم هندستك تماماً، - قال بودتياغين بصوت منخفض وهو يقشر في حذر فتاتات الخبز بسكين صغيرة ويجمعها في راحته. كان كمعظم الشعراء المسنّين ميالاً الى المنطق الانساني البسيط.

- وكيف، هذا في غاية الوضوح، - قال الفيروف منفعلاً، - تصوّر. .

– لاأفهم – كرّر بودتياغين بحزم ورفع رأسه الى الوراء قليلاً وصبّ ماتجمّع لديه من فتات في فمه. بسط الفيروف يديه بسرعة فأطاح بكأس غانين.

– آه، العفو! . .

– الكأس فارغة.

– أنت لست رياضياً ياانطون سيرغييفتس – أردف ألفيروف بتململ – أنا طول عمري تأرجحت على الأعداد كما على الأراجيح. وقد قلت لزوجتي مراراً: بما أني رياضي فأنت أمّ وزوجة أب* . .

انفجر غورنوتسفيتوف وكولين في ضحكة رقيقة. ارتعدت السيدة دورن ونظرت إليهما في ذعر.

– بكلمة واحدة: رقم وزهرة – قال غانين ببرودة. وحدها كلارا ابتسمت. أخذ غانين يسكب ماء فيما الجميع يتابعون حركته.

– أجل، أنت على حق: أرقّ زهرة – قال الفيروف بصوت ممطوط وهو يلقي على جاره نظرة برّاقة شاردة.

– بالفعل عجيبة كيف عاشت سنوات الهول هذه. إلا أني متأكد أنها ستصل الى هنا متألقة، فرحة. . أنت شاعر ياانطون سيرغييفتش– فهلا وصفت مثل هذا الأمر: كيف أن الأنوثة، الأنوثة الروسية الرائعة أقوى من أي ثورة وكيف أنها تتخطّى كل شيء– البلاوى والإرهاب. . .

همس كولين في أذن غانين:

– هاهو يعود الى الموضوع من جديد. . . البارحة لم يكن همّه إلا الكلام عن امرأته. .

---

* وتعني أيضاً رياضية وهنا تلاعب بالألفاظ. (المترجم).

«ياله من إنسان مبتذل - فكّر غانين في سرّه وهو يلقي نظرة على لحية ألفيروف المتحركة- وزوجته لابدّ أنها حركة، أريبة. . . أن لايُخان شخص كهذا خطيئة. . ».

- اليوم عندنا لحم خروف -أعلنت ليديا نيقولايفنا بغتة بصوت خشبي وهي تنظر في عبوس الى نزلائها كيف يأكلون اللحم المشوي بلا مبالاة. انحنى الفيروف لأمر ما وتابع:

- عبثاً ياأبتاه أنك لاتأخذ موضوعاً كهذا. (هزّ بودتياغين رأسه بدماثة لكن بحزم). لعلّك تدرك حين ترى زوجتي ماأريد أن أقول. . وبالمناسبة هي تحب الشعر كثيراً. لابدّ أن تتفاهما. وهناك ماأريد أن أقول أيضاً. . .

كان كولين ينظر الى ألفيروف بطرف عينه ويحرّك إصبعه في خلسة في دعوة الى الاتزان. وكان غورنوتسفيتوف يسترسل في ضحك هادىء وهو يرنو الى إصبع جاره.

- الأساسي هنا- تابع ألفيروف يهذرم- هو أنه انتهى كل شيء بالنسبة لروسيا، أزالوها، مسحوها كما لو أنك تمسح بخرقة مبلّلة لوحاً أسود أو سحنة مرسومة. .

- ومع هذا -ابتسم غانين في سخرية.

- لايروق لك أن تسمع، ياليف غليبوفتش.

- لايروق، لكني لاأمانع، ياالكسي ايغانوفتش.

- لعلك ترى إذاً أنه ربما. . .

- آه، أيها السادة - قاطعه بودتياغين بصوته الأربد الألثغ قليلاً. - بلا سياسة. علام السياسة؟

- ومع هذا فمسيو ألفيروف ليس على حق، - تدخلت كلارا على حين غرّة وسوّت تسريحتها على عجل.

– زوجتك تصل السبت؟– سأل كولين بصوت بريء من آخر الطاولة فرشّ غورنو تسفيتوف الرذاذ في الفوطة.

– السبت –أجاب ألفيروف وهو يترك الصحن مع قطة اللحم غير المأكولة. عيناه اللتان أخذتا تلمعان بنار مشاكسة سرعان ماانطفأتا في انشغال بال.

– هل تدرين، ياليديا نيقولايفنا، البارحة عَلِقْنا مع غليب لفوفيتش في المصعد.

– الخشاف – أجابت السيدة دورن ـ خشاف من الأجاص.

قهقه الراقصان. أخذت إيريكا ترفع الصحون وهي تنقر بعطفيها أكواع الجالسين الى المائدة. طوى غانين الفوطة بعناية ودسّها في الطارة. لم يكن يأكل حلويات.

– ياله من فراغ وملل.. – فكّر في سرّه وهو يعود الى غرفته– ماالعمل الآن؟ هل أخرج لأتفسّح؟

مرّ يومه هذا، كأيامه السابقة، في خمول وفي خواء لاطعم له يفتقر الى الأمل الحالم الذي يجعل الخواء رائعاً. كانت العطالة ترهقه الآن ولم يكن هناك من عمل. رفع ياقة معطف مطريّ عتيق اشتراه بجنيهٍ من ضابط انكليزي في الآستانة ودسّ قبضتيه بقوة في جيبيه وراح يتهادى ويتمايس ببطء في الشوارع النيسانية الشاحبة حيث كانت تطفو وتتأرجح قباب المظلات السود، وأطال النظر في واجهة شركة ملاحة الى نموذج رائع «للمفريتانيا» والى الشرائط الملوّنة تربط ثغور قارتين على خريطة كبيرة. وفي القاع كانت هناك صورة دغل استوائي – نخلة بنية على خلفية سماء سمراء شاحبة.

مكث قرابة الساعة يشرب القهوة وينظر الى المارّة وهو جالس الى نافذة ضخمة نظيفة. ولما عاد الى البيت حاول أن يقرأ، لكن بدا له مافي الكتاب غريباً

وغير مناسب بحيث رماه بعيداً ولمّا يكمل الجملة الأولى. دهمه ما كان يسميه «شرود الإرادة». كان يجلس أمام الطاولة دون حراك ودون أن يتمكن من تقرير مايجب عليه فعله: هل يغيّر من وضع جسمه أم ينهض ليغسل يديه أم يفتح النافذة حيث كان النهار الغائم يحبو نحو الغسق... كانت هذه حالة مؤلمة ومخيفة لاتشبه إطلاقاً تلك الكربة الثقيلة التي تنتابنا حين لانستطيع فور خروجنا من النوم فتح جفوننا التي كأنما أغمضت الى الأبد. وهكذا كان غانين يشعر أن الغسق الداكن الذي كان يغمر الغرفة شيئاً فشيئاً يغمره كله ويحيل دمه ذاته الى ضباب، وأن لاقدرة لديه على إيقاف هذه الوسوسة الغسقية. لم تكن عنده القدرة، لأنه لم تكن فيه رغبة محدّدة، وكان عذابه بالضبط في أنه كان يبحث عبثاً عن رغبة. لم يكن بوسعه إجبار نفسه على مدّ يده الى المصباح كي يطفىء النور. هذا الانتقال البسيط من القصد الى تحقيقه كان يبدو له معجزة مستحيلة. لم يكن هناك مايزيّن سأمه الباهت، كانت أفكاره تحبو دون رابط، وقلبه يخفق بهدوء، وبياض السرير يلتصق بجسمه بشكل مملّ. كان يتهيأ له حيناً أنه ينبغي عليه أن يكتب للحال رسالة الى لودميلا ويبيّن لها بحزم أنه آن الأوان لإنهاء هذه القصة الباهتة، وحيناً كان يتذكر أن عليه أن يذهب معها مساء الى السينما، ولأمر ما كان من الأصعب عليه بدرجات أن يحزم أمره ويتصل بها هاتفياً ليبلغها عزوفه عن لقاء اليوم من أن يكتب لها رسالة، ولهذا لم يكن بوسعه تنفيذ أيّ من الأمرين.

وكم سبق له أن أقسم أنه في الغد حتماً سيقطع صلته بها وكم أعدّ دون جهد من العبارات الضرورية، لكنه لم يكن بوسعه تصور تلك الدقيقة الأخيرة حين يشدّ على يدها ويخرج بهدوء من الغرفة. هذه الحركة بالذات - أن يستدير ويغادر -كانت تبدو غير ممكنة. كان من فصيلة أولئك القادرين على أن يسعوا ويصلوا ويحصلوا، إنما العاجزين تماماً عن التخلّي وعن الهرب على حدّ سواء- وهما في غاية الأمر شيء واحد. هكذا كان يمتزج في داخله شعور العزة والشرف وشعور

الشفقة مخبليْن إرادة هذا الانسان القادر في ظرف آخر على أي مآثر خلاّقة، على أي عمل، والذي يقبل على هذا العمل بنهم، بطيب خاطر، وبعزم فرح على تجاوز كل شيء وبلوغ كل شيء.

لم يكن يعرف أي دفعة من الخارج يجب أن تحدث كي تعطيه القوة على قطع علاقته بلودميلا المستمرة من ثلاثة أشهر تماماً كما لم يكن يعرف ماالذي يجب أن يحدث بالضبط كي يتمكن من النهوض عن الكرسي.

لم يستمرّ إلا قليلاً جداً شغفُه الحقيقي الفعلي ـ تلك الحالة النفسية التي كانت لودميلا تتراءى له فيها في ضباب مُغْرٍ، حالة الاضطراب الباحث، الرفيع اللاأرضي تقريباً، الشبيهة بالموسيقا التي لاتعزف إلا حين نقوم بعمل عادي تماماً ـ نتّجه من الطاولة الى البوفيه لنؤدي الحساب، والتي تحيل حركتنا البسيطة هذه الى رقصة داخلية، بادرة قيّمة وخالدة.

صمتت هذه الموسيقا لحظة أن استسلمت له لودميلا ذات ليلة على الأرض المهتزة لسيارة أجرة داكنة، وعلى الفور بات كل شيء مملاً - المرأة التي تسوّي قبعتها الساقطة على قذالها، والأنوار المارقة قرب النوافذ، وظَهْر السائق المتكوّم كتلة سوداء وراء الزجاج الأمامي.

والآن كان عليه أن يدفع ثمن هذه الليلة خداعاً عسيراً ويواصل هذه الليلة بلا نهاية ولاقوّة، وأن يستسلم دون إرادة الى طيفها الزاحف الذي تشبعت به الآن كل زوايا الغرفة وأحال الأثاث الى سحائب. استغرق في غفوة ضبابية سانداً جبينه بكفّه وباسطاً على نحو غريب ساقيه المتخشبتين تحت الطاولة.

. . . .

وفيما بعد، في دار السينما غصت القاعة بالناس وارتفعت الحرارة. كانت الإعلانات المطليّة وآلات البيانو والأثواب والعطور تلمع على الشاشة في صمت مديد دون موسيقا. وأخيراً صدحت الأوركسترا وبدأت الدراما.

كانت لودميلا مرحة على نحو غير مألوف. دعت كلارا للذهاب معاً لأنها كانت تشعر بوضوح أن غانين يعجب كلارا وأرادت توفير بعض الغبطة لها ولنفسها والزهو بقصتها وبقدرتها على إخفائها. أما كلارا فوافقت على الذهاب لأنها كانت تعرف أن غانين يستعد للمغادرة يوم السبت وكانت تعجب، الى ذلك، من أن لودميلا كأنما لاتعرف شيئاً عن هذا الموضوع أو لعلّها لاتتكلم فيه قصداً- إلا أنها ستغادر معه.

كان غانين الجالس بين الاثنتين يشعر بالانزعاج من أن لودميلا كمعظم النساء اللواتي على نمطها كانت طوال العرض تتحدث عن أشياء جانبية، تنحني فوق ركبتي غانين نحو صديقتها وتنفحه كل مرّة برائحة عطرها الباردة الأليفة الكريهة. هذا على حين كانت لوحات العرض مشوقة ومنفّذة على نحو رائع.

- اسمعي يالودميلا بوريسوفنا، - قال لها أخيراً غانين وقد نفد صبره - كفّي عن الهمس. الألماني الذي ورائي بدأ يغضب.

رمقته بنظرة سريعة في الظلام، ارتدّت الى الوراء، نظرت الى اللوحة المتلألئة.

- إني لاأفهم شيئاً، سخافة في سخافة.

- لم تتوقفي عن الهمس، - قال غانين، - وعليه ليس من الغريب أن لا تفهمي شيئاً.

كانت على الشاشة حركة مضيئة، زرقاء رمادية، مغنية أوبرا اقترفت في حياتها جريمة قتل غير متعمّدة تذكرت على حين غرّة هذه الجريمة وهي تؤدي في الأوبرا دور المجرمة فهوت على خشبة المسرح مستلقية على ظهرها ومحملقة بعينين غريبتين جدّ كبيرتين. ماجت قاعة المسرح ببطء، الجمهور يصفّق، المقاصير والصفوف تنهض في غيبوبة استحسان. وفجأة تراءى لغانين شيء ما أليف بشكل مبهم ومزعج. تذكّر بقلق الصفوف المفصّلة والمستمرّة دون اتقان

والمقاعد وحواجز المقاصير المدهونة بلون بنفسجي منذر بالسوء، والعمّال الكسالى يتنقّلون كالملائكة الزرق دون تكلّف ودون مبالاة من عارضة الى أخرى في الأعلى أو يسلّطون فوّهات الكشافات الباهرة الضوء على فوج كامل من الروس حُشر في عنبر ضخم ويجري تصويره دون أن يعلم شيئاً عن مجرى أحداث اللوحة. تذكر الشبّان في ألبستهم المبتذلة إنما المخيطة بشكل مدهش، ووجوه السيدات في مساحيق ماكياج ليلكية وصفر وأولئك الطريدين الأبرياء والعجائز وحتى الصبايا غير الجميلات الذين كانوا يحشرون كلهم في العمق لمجرّد استكمال الخلفية لاغير. والآن استحال داخل ذاك العنبر البارد على الشاشة الى مسرح مريح، وقماش الهُبَاية الى مخمل والجمهور المعدم الى جمهور مسرح. أحدَّ النظر فتعرّف، وقد اخترقته اختلاجة حادة من الخجل، على شخصه ذاته وسط هؤلاء الناس الذين كانوا يصفقون حسب الطلب، وتذكر كيف كان عليهم جميعاً أن يحدّقوا الى الأمام، الى مشهد مُتخيّل لم يكن فيه أي مغنية أوبرا إنما كان يقف فيه على المنصة بين المصابيح شخص بدين أمغر يزعق في البوق حتى الجنون.

شبيه غانين كان يقف هو أيضاً ويصفّق هناك الى جانب سيد أسود اللحية بالغ التأثير يضع شريطاً على عرض صدره الأبيض. وبفضل هذه اللحية وهذه الملابس البيض المنشّاة كان موقعه دائماً في الصف الأول، وفي فترات الاستراحة كان يلوك الشطائر أما فيما بعد حين انتهاء التصوير فكان يرتدي معطفاً قميئاً فوق الفراك ويمضي الى بيته في منطقة متطرّفة من برلين حين كان يعمل منضّداً في مطبعة.

ولم يشعر غانين في هذه اللحظة بالخجل وحسب وإنما بسرعة جريان الحياة الانسانية وفرادتها. هناك، على الشاشة اختفى قوامه النحيل ووجهه الحاد المرفوع الى أعلى ويداه المصفّقتان في الدوران الرمادي للشخوص الأُخر، وماهي إلا هنيهة حتى استدارت القاعة وابتعدت كالمركب، والآن كانت تُعْرَض ممثلة كهلة معروفة في العالم كله تصور بمهارة كبيرة امرأة شابة ميتة. «لانعرف ما نبدعه»، -فكّر غانين في اشمئزاز وقد كفّ عن النظر الى اللوحة.

كانت لودميلا تتهامس وكلارا من جديد، عن خيّاطة ما، عن أقمشة ما - وكانت الدراما تشرف على نهايتها وكان غانين يشعر بملل قاتل. وحين كانوا يشقون طريقهم بعد بضع دقائق الى المخرج التصقت لودميلا به وهمست: «غداً في الثانية اتصل بك ياعزيزي..».

أوصلها غانين وكلارا الى البيت ثم مضيا معاً الى نزلهما. كان غانين ملازماً الصمت وكانت كلارا تسعى في جهد مضنٍ للعثور على موضوع للحديث.

سألته:

- يقال إنك ستغادر يوم السبت، صحيح؟

- لاأدري، لاأدري شيئاً... - أجاب غانين بتجهّم.

كان يسير ويفكر في أن ظلّه سيأخذ يطوف الآن من مدينة الى مدينة، من شاشة الى شاشة، وأنه لن يعرف أبداً أي أناس سيرون هذا الظلّ وكم سيستمر في تجوابه العالم. وحين استلقى أخيراً في سريره وتناهت إليه أصوات القطارات التي تقطع هذا البيت الكئيب من طرف الى آخر، هذا البيت الذي كانت تعيش فيه سبعة ظلال روسية ضائعة- بدتْ له الحياة كلها لعملية التصوير تلك حيث لم يكن الممثل الصامت اللامبالي يدري في أي لوحة يشارك.

لم يستطع غانين أن يغفو؛ كانت رجلاه تؤلمانه والمخدّة توجع رأسه. ووسط الليل أخذ جاره ألفيروف يدندن وراء الحائط. كان يُسمع عبر الحائط الرقيق كيف كان ألفيروف يخفق بقدميه فوق أرض الغرفة مقترباً حيناً ومبتعداً حيناً آخر، وكان غانين يستلقي حانقاً ساخطاً. وحين كانت رعشة القطار تسري كان صوت ألفيروف يختلط بالهدير ثم يعود ليطفو من جديد: تو -وو، تو-تو، تو- و-و.

لم يعد غانين يحتمل. شدّ سرواله، خرج الى الممرّ وطرق بقبضته باب الغرفة الأولى. واتفق أن كان الفيروف أثناء تهيامه هذا قبالة الباب مباشرة ففتحه دفعة واحدة على الفور بحيث ارتعد غانين من المفاجأة.

– تفضل ياليف غليبوفتش، أرجوك.

كان يرتدي قميص نوم وسروالاً صغيراً. وكانت لحيته المذهبة الصغيرة تشعثت قليلاً ربمّا لأنه كان ينفخ أغاني، إلا أن السعادة كانت تلمع في عينيه الزرقاوين الشاحبتين.

قال غانين مقطباً حاجبيه:

– ها أنت ذا تغني، وهذا يعيق نومي.

– ادخل ياعزيزي، ادخل. لماذا تقف هكذا عند الباب – قال الكسي ايفانوفتش باندفاع وهو يمسك غانين من خصره بحركة خرقاء إنما ودّية. – آمل من سماحة نفسك أن تعذرني إن كنت أزعجتك.

دخل غانين الغرفة على غير رغبة. كان فيها القليل القليل من الأشياء والكثير الكثير من الفوضى. كان أحد الكرسيين بدل أن ينتصب عند طاولة الكتابة (تلك الكتلة الضخمة من البلّوط التي كانت فوقها محبرة بشكل أفعى كبيرة) كأنما هام على وجهه باتجاه المغسلة الصغيرة لكنه توقف في منتصف الطريق بعد أن اصطدم على مايبدو بطرف السجادة الخضراء المقلوب. والكرسيّ الآخر الذي كان ينتصب عند السرير بمثابة طاولة ليلية اختفى تحت الجاكيت الساقط عليه كما لو من جبال أرارات لشدّة ماكان يجثم فوقه باسترخاء وتثاقل. وعلى قفر الطاولة البلّوطي كما على السرير كانت تتناثر أوراق رقيقة. وعلى هذه الأوراق لاحظ غانين بسرعة مخططات بقلم الرصاص وأشكالاً ودواليب ومربّعات تفتقر الى أي دقّة تقنيّة لكنها خُطت هكذا، كيفما اتفق بغية تزجية الوقت فقط. وكان ألفيروف، وهو في سرواله الدافيء هذا الذي يجعل من أي رجل ولو كان رشيقاً كأدونيس وأنيقاً كبروميل شخصاً غير جذّاب على نحو غير عادي، قد عاد يروح ويجيء وسط حطامات الغرفة هذه ينقر بإصبعه غطاء مصباح الطاولة تارة وظهر الكرسي تارة أخرى.

- أنا مسرور بشكل هائل لأنك أطْلَلْت علي أخيراً - قال ألفيروف- أنا نفسي لم يكن بمقدوري أن أنام. تصور، زوجتي تصل السبت. وغداً هو الثلاثاء. . . المسكينة، أتصور كم تعذبت في روسيا اللعينة هذه! .

رفع غانين الذي كان يتأمل بتجهّم مسألة شطرنج رُسمت بشكل تقريبي على إحدى الأوراق المتكدسة على السرير رأسه بغتة :

- ماذا قلت؟

- تصل - أجاب ألفيروف وهو ينقر بإصبعه بخفّة وهمّة .

- لا، ليس هذا . . ماذا قلت بخصوص روسيا؟

- اللعينة، وماذا أليست هذه هي الحقيقة؟

- لا، إنما هذا نعت مثير .

- آه ياليف غليبوفتش - قال ألفيروف وقد توقف فجأة وسط الغرفة- كفاك رطانة بلغة البلاشفة . يبدو لك هذا أمراً جدّ طريف، لكن صدقني : هذا إثم من جانبك . وآن لنا جميعاً أن نعلن أن روسيا انتهت، وأنه تبيّن أن «المبشّر بالرب»، كما كان، بالمناسبة، من الممكن توقعه، ليس سوى وغد سافل جاهل وأن بلدنا، بالتالي، انتهى الى الأبد .

انفجر غانين ضاحكاً .

- طبعاً، طبعاً، ياالكسي ايفانوفتش .

مسح ألفيروف براحته وجهه الذي أضاء من أعلى الى أسفل وابتسم فجأة ابتسامة عريضة حالمة :

- وعلام لم تتزوج ياعزيزي، آ؟

- مافي نصيب، - أجاب غانين- وهل هذا شيء مفرح؟

- بل فاخر. زوجتي روعة. سمراء، عينان حيّتان بشكل. . صبية تماماً. تزوجنا في بولتافا، سنة ١٩، وسنة عشرين اضطررت الى الهرب، ها هنا، عندي في الدرج صور، سأريك إياها.

وأخرج من تحت بكفّه المقبوضة صندوقاً صغيراً.

- ماذا كنت تعمل آنذاك ياالكسي ايفانوفتش؟- سأل غانين دون فضول.

- لاأذكر. وهل يمكن حقّاً تذكر ماكنته في حياتي الماضية، لربما كنت محارة أو فلنقل عصفوراً ولربّما كنت معلم رياضيات. الحياة السابقة في روسيا مازالت تبدو لي حتى الآن شيئاً ما سابقاً على الزمن، ميتافيزيكيّاً أو- كيف أقول هذا بكلمة أخرى- أجل تحوّلات نفسية.

كان غانين يتأمل بقدر من اللامبالاة صورةً في الصندوق المفتوح. كانت الصورة تمثل وجه امرأة شابة مهلهلة ذات فم مرح بأسنان كبيرة. انحنى ألفيروف فوق كتفه:

- لا، هذه ليست زوجتي، هذه أختي. ماتت بالتيفوئيد، في كييف. كانت جيدة، ميّالة للضحك، معلمة في لعبة المسّ.

قرّب إليه صورة أخرى.

- هذه ماشينكا، زوجتي. صورة غير جيدة لكنها قريبة من الواقع مع هذا، وهذه صورة أخرى، التقطت في حديقتنا. ماشينكا هي تلك الجالسة في فستان فاتح. من أربع سنوات لم أرها. لكن لاأظن أنها تغيّرت كثيراً. بصراحة لاأعرف كيف أعيش حتى السبت. . . مهلاً. . . الى أين ياليف غليبوفتش؟ امكث قليلاً!. .

دسّ غانين يديه عميقاً في جيبي سرواله واتجه صوب الباب.

- ليف غليبوفتش! مابك؟ هل أسأت إليك بشيء؟

صفُق الباب وبقي ألفيروف يقف وحيداً وسط الغرفة .

- ومع هذا . . ياله من جلف - غمغم ألفيروف- ماالذي دهاه؟

﴿ ٣ ﴾

في هذه الليلة كان هناك، كما الحال دائماً، عجوز في لفاع أسود يمشي متثاقلاً إزاء الطوار الممتد على طول الشارع الطويل المقفر ينقر برأس عصاه العجراء الاسفلت باحثاً عن أطراف تبغيّة - ذهبية، فلينيّة أو حتى ورقية- وكذلك عن أعقاب سيجار رقائقية. وبين الفينة والفينة كانت تمرق سيارة مطلقة صوتاً كصوت الأيل أو كان يحدث ما لم يكن بوسع أيّ من مشاة المدينة أن يلحظه: كانت تسقط نجمة أسرع من فكرة وأصمت من دمعة. وكانت الأحرف النارية التي تتدفق الواحد تلو الآخر فوق السطح الأسود وتدلف قليلاً ثم تضيع دفعة واحدة في العتمة أسطع وأمرح من النجوم.

«أو يكون . . . هذا . . . ممكناً . . . » -كانت الحروف تبرز في همس ناري حذر وكان الليل يُسقطها بضربة مخملية واحدة.

وكانت العتمة تجثم من جديد. لكن الحروف كانت تتأجج بعناد من جديد، وبدلاً من أن تختفي على الفور، كانت أخيراً تستمرّ تلمع خمس دقائق كاملة وفق الاتفاق بين مكتب الإعلانات الكهربائية وصاحب المعمل.

وعلى أي حال، الله أعلم ماالذي كان يتحرك هناك في العتمة فوق البيوت، أهو إعلان ضوئي أم فكرة انسانية، أم إشارة أم نداء أم سؤال أُطلق نحو السماء ويتلقى الآن على حين غرّة جواباً بديعاً وثميناً.

أما في الشوارع التي أضحت واسعة كبحار سود لامعة، وفي هذه الساعة المتأخرة حين تقفل آخر خمّارة ويخرج إنسان روسي وقد نسي النوم دون قبعة،

دون جاكيت، في معطف مطري عتيق، يخرج كالمهلوس الى الشارع يهيم على وجهه فيه، في هذه الساعة المتأخرة وفي هذه الشوارع العريضة كانت تروح وتجيء عوالم يجهل بعضها بعضاً - ليس عربيداً وليس امرأة وليس مجرّد عابر سبيل - وإنما عالم مغلق بإحكام، مليء بالغرائب والجرائم. كانت خمس حناطير على امتداد البولفار الى جانب دارة ضخمة لمرحاض شارع، خمسة عوالم ناعسة، دافئة، شائبة في أزياء حوذيّة وخمسة عوالم أخرى ذات حوافر موجعة تنام ولا ترى في نومها إلا الشوفان يتدفق من الكيس في جلبة خفيفة.

هناك لحظات يصبح فيها كل شيء مريعاً، عميقاً عمقاً لاقرار له، ويبدو فيها الموت فظيعاً والحياة أفظع. وفجأة وأنت تنطلق على هذه الحال في هذه المدينة الليلية، وأنت تتطلع من خلال الدموع الى الأضواء تلتقط فيها ذكرى سعادة عجيبة مبهرة - وجه نسائي يطفو من جديد بعد سنوات عديدة من النسيان الحياتي المألوف - فجأة وأنت لاتزال تنطلق ويجنّ جنونك هكذا يستوقفك عابر سبيل بأدب ويسألك كيف الوصول الى شارع كذا، يسألك بصوت عادي لكنك لن تعود وتسمع هذا الصوت أبداً.

﴿ ٤ ﴾

شعر يوم الثلاثاء، بعد أن استيقظ متأخراً، ببعض الألم في رجليه فاستند الى المخدّة وتنهّد المرّة تلو الأخرى بغبطة مبهوتة قلقة وقد تذكر ماحدث البارحة.

كان الصباح أبيض، لطيفاً، داخناً. وكان الزجاج يهتزّ بضجّة العمل.

وثب عن السرير باندفاعة حازمة وأخذ يحلق ذقنه. كان يجد اليوم في هذا الأمر متعة خاصة. من يحلق يجدّد شبابه كل صباح ليوم واحد. وقد تهيأ اليوم لغانين أنه جدّد شبابه لتسع سنين تماماً.

الشعر القصير على الجلد المشدود الذي طرّته ندف الرغوة كان يشخشخ بانتظام ويمضي تحت المحراث الفولاذي الصغير للموسى. كان غانين يحرّك حاجبيه وهو يحلق، ثم مايلبث أن يبتسم بسرور فيما بعد حين كان يصب على وجهه ماء بارداً من الإبريق. سوّى شعره الداكن البليل على يافوخه وارتدى ملابسه بسرعة وخرج.

لم يكن بقي في النزل أحد من النزلاء اللهم إلاّ الراقصان اللذان لم يكونا ينهضان عادة إلا قبيل الغداء: ألفيروف كان قد توجّه الى أحد معارفه الذي كان يتدبر معه عملاً في أحد المكاتب. بودتياغين ذهب الى قسم الشرطة للحصول على تأشيرة الخروج، كلارا التي تأخرت عن الوظيفة كانت تنتظر الحافلة الكهربائية عند زاوية الشارع ضامة الى صدرها كيساً ورقياً صغيراً من البرتقال.

أما غانين فقد صعد دون اضطراب الى الطابق الثاني في بيت مألوف لديه وشدّ حلقة الجرس. فتحت الخادمة الباب دون أن ترفع سلسلته الداخلية وأطلت برأسها وقالت إن السيدة روبنسكايا لاتزال نائمة.

– على أي حال ينبغي أن أراها – قال غانين بهدوء ومدّ يده الى ثقب الباب ونزع الحلقة بنفسه.

غمغمت الخادمة، وهي فتاة مربوعة القامة شاحبة، بشيء ما في امتعاض، لكن غانين نحّاها بمرفقه ومضى بنفس الحزم في نصف العتمة المخيمة على الممرّ، وطرق الباب.

– من هناك؟ – علا صوت لودميلا الصباحي الأجش.

– أنا، افتحي.

نقرت بكعبيها الحافيين متجهة الى الباب وأدارت المفتاح، وعَدَتْ قبل أن تنظر الى غانين عائدة الى السرير وقفزت الى تحت اللحاف. كان واضحاً من طرف أذنها أنها تبتسم تحت الوسادة وتنتظر أن يقترب غانين منها.

لكنه توقف وسط الغرفة، وبقي مكانه فترة طويلة الى حدّ ما هكذا يخشخش بقطع نقود صغيرة في جيوب معطفه المطري.

انكفأت لودميلا فجأة على ظهرها وبسطت يديها النحيلتين العاريتين وهي تضحك. كان الصباح لايناسبها: كان وجهها شاحباً منتفخاً وشعرها الأصفر واقفاً.

- إيه، - مطّت صوتها وزرّت عينيها.

كف غانين عن الخشخشة.

- اسمعي يالودميلا، - قال بصوت خافت.

نهضت قليلاً وقد فتحت عينيها على اتساعهما.

- هل حدث شيء ما؟

نظر إليها غانين نظرة ثاقبة وأجاب:

- نعم. لقدْ تبيّن لي أني أحب امرأة أخرى. وقد جئت أودعك.

طرفت برموشها المرتبكة وعضت شفتها.

- هذا في الحقيقة كل شيء، - قال غانين. - آسف جداً، لكن ليس في اليد حيلة. سنودّع بعضنا الآن. أظنّ أن هذا سيكون أفضل.

غطت لودميلا وجهها وانكبّت بوجهها على المخدة من جديد. أخذ اللحاف اللازوردي المضرَّب ينزاح عن رجليها ليحطّ على السجادة الوبرية البيضاء. رفع غانين اللحاف وسوّاه. ثم راح وجاء في الغرفة مرّة أو مرتين. قال:

- الخادمة لم ترد أن تدخلني.

كانت لودميلا ترقد كالميتة وقد دفنت وجهها في المخدة.

- إنها على العموم غير بشوشة ـ قال غانين ـ ثم إنه آن الأوان لتكفّوا عن تدفئة البيت - لقد جاء الربيع - قال هذا بعد هنيهة، واتجه من الباب صوب المرآة المنتصبة ووضع قبعته.

لم تُبد لودميلا نأمة أو حركة طوال هذا الوقت. وقف قليلاً أيضاً، تأملها في صمت ثم خرج من الغرفة بعد أن أصدر عن حلقه صوتاً خفيفاً فِعْل من يريد أن يسعل.

مرق بسرعة في الممرّ الطويل في محاولة منه للخروج بهدوء لكنه أخطأ الباب ووجد نفسه وهو مندفع بكل قوته في غرفة الحمّام حيث نفرت يد شَعْراء وزمجرة أسد فاستدار بعنف واصطدم مرّة أخرى بالخادمة القصيرة البدينة التي كانت تمسح بالخرقة تمثالاً نصفياً من البرونز في المدخل وراح يهبط للمرّة الأخيرة الدرج الحجري الخفيف الانحدار. وعند بسطة الدرج كان الإطار الهائل لنافذة تطلّ على الحوش الخلفي مُشْرعاً، وكان في الحوش مغنّ جوّال ذو صوت جهوري يزعق بالألمانية «ستينكارازين».

شعر غانين وقد سمع هذا الصوت المرتعش ارتعاشات ربيعية وألقى نظرة على نمنمات الزجاج المفتوح- نجمة ورود مكعبة ومروحة طاووسية - شعر أنه حرّ طليق.

سار في الشارع ببطء وهو يدخّن. كان النهار مائلاً الى البرودة، حليبياً؛ كانت السحب البيض الشعث ترتفع للقياه في الفرجة الزرقاء بين البيوت. كان يتذكر دائماً روسيا حين كان يرى السحب المتسارعة، لكن كان بوسعه الآن أن يتذكرها حتى بدون سحب: فمنذ الليلة الماضية لم يكن يفكر إلا فيها.

فما حدث هذه الليلة، هذا الحدث المدهش في النفس بدّل المواشير الضوئية لحياته كلها وألقى عليه بالماضي كله.

جلس على مقعد في جنينة فسيحة وعلى الفور تمدّد رفيق الدرب الهلع والحنون الذي كان يلازمه عند قدميه ظلاً ربيعياً رمادياً وطفق يتكلم.

والآن، بعد اختفاء لودميلا كان حراً في الاستماع إليه . . .

قبل تسع سنوات . . . الصيف، المزرعة، التيفوئيد . . شيء لطيف، لطيف بشكل مدهش أن تتعافى بعد الإصابة بالتيفوئيد، ترقد وكأنك على موجة هواء؛ الطحال مازال يؤلمك قليلاً بين الحين والحين، والممرضة التي استقدمتها من بطرسبرج تفرك لك لسانك في الصباح - لسانك الغروي بعد النوم - بقطعة قطن مشبعة «بالبورفين». الممرّضة ذات قامة جد قصيرة وصدر رخو ويدين قصيرتين رشيقتين تصدر عنها رائحة فجّة، برودة عانس. تحب الكلمات والأقوال المأثورة الساخرة والكلمات اليابانية المتبقية عندها من حرب عام أربعة. وجه بحجم القبضة، نسائي فجّ، مجدور، بأنف حاد، وليست هناك شعرة واحدة تتدلى من تحت المنديل.

تستلقي كأنما في الهواء. السرير الى اليسار مفصول عن الباب بستار قصبي أصفر كلّه، ذو ثنايا منسجمة. والى اليمين على مسافة جدّ قريبة هناك في الزاوية خزانة صغيرة: أيقونات سمراء خلف الزجاج، وزهور من شمع وصليب من المرجان. نافذتان، واحدة قبالته مباشرة لكنها بعيدة: كأنما السرير يرتد برأسه عن الحائط ويسعى إليه بمقابض أسفله الرصاصية حيث في كل مقبض فقاعة شمس، يسعى فإذا به يتحرّك ويطفو سابحاً عبر الغرفة كلها الى النافذة، الى سماء تموز العميقة التي ترتفع فيها بانحراف سحب وضاءة رخوة. النافذة الثانية، في الحائط الأيمن، تطل على سطح مائل أخضر قليلاً: غرفة النوم في الطابق الثاني، أما هذا فهو سطح جناح ذي طابق واحد حيث غرفة الجلوس والمطبخ. النوافذ تغلق ليلاً بدرفٍ بيض ذات مصاريع.

خلف الستارة باب يؤدي الى الدرج يليه عند ذاك الحائط مدفأة بيضاء براقة ومغسلة عتيقة لها خزّان ماء وصنبور على شكل منقار: تضغط برجلك على

الدواسة النحاسية فتنطلق من الصنبور نافورة رفيعة . والى يسار النافذة الأمامية صِوانٌ من خشب أحمر ذو أدراج جدّ ضيقة والى يمينه متكأ .

غطاء الجدران أبيض موشى بورود لازوردية . كان يحدث ، وأنت في شبه هذيان ، أن تشكّل من هذه الورود صورة إثر أخرى أو أن تجوب بعينيك الى أعلى وأسفل جاهداً ألاّ تمس في طريقك زهرة واحدة أو ورقة واحدة فتجد فتحات في الوشي فترمح وتعود القهقرى وقد وجدت نفسك في طريق مسدود ، ثم تبدأ تهيم من جديد في متاهة مضيئة . عن يمين السرير بين رفّ الأيقونات والنافذة الجانبية لوحتان معلقتان : قطة سلحفاتية تلعق الحليب من الصحن وزرزور مصنوع على نحو بيّن من ريشه نفسه يقف فوق عشّ مرسوم . وقريباً منهما عند عضادة الباب ثُبّت مصباح كيروسين توّاق الى نفث لسان أسود من السخام . وهناك أيضاً لوحات أخرى : مطبوعة حجرية – نيا بوليتاني ذو صدر مكشوف ـ فوق الصوان ، وفوق المغسلة رأس حصان مرسوم بالقلم يسبح في الماء وهو ينفخ بخيشومه .

طوال النهار ينزلق السرير الى السماء الحارّة ذات الرياح النشطة وحين تنهض قليلاً تَرى رؤوس أشجار الزيزفون تخترقها الشمس الصفراء بعنف وأسلاك الهاتف تقعد الخطاطيف عليها وقسماً من الطنف الحجري فوق الطريق الأحمر الليّن أمام الجناح الأمامي . ومن هناك تأتيك أصوات مدهشة : زقزقة ، نباح بعيد ، صرير مبنى المضخّة .

ترقد ، تسبح ، تظنّ أنك ستنهض قريباً ؛ وفي البركة الشمسيّة يلهو الذباب ، وكبّة الحرير الملوّنة تقفز كالجنيّ عن ركبتي الوالدة الجالسة بالقرب وتدرج بلينٍ على أرض البيت المفروشة بالخشب الكهرماني . . .

في هذه الغرفة بالذات حيث كان ابن السادسة عشرة غانين يتماثل للشفاء وُلدتْ تلك السعادة ، تلك الصورة النسائية التي التقاها بعد شهر في اليقظة . وقد أسهم كل شيء في هذا التكوين : المطبوعات الحجرية الرقيقة على الجدران والزقزقات وراء النافذة ووجه المسيح الأسمر في الخزانة البلّورية ، بل حتى نافورة

المغسلة. كانت الصورة الوليدة تشدّ وتمتص كل الفتنة الشمسية لهذه الغرفة، وبطبيعة الحال ماكان لهذه الصورة أن تنشأ وتكبر دونها. وغاية الأمر أن هذا كان مجرّد إحساس شبابي مسبق، ضباب لذيذ، لكن كان يبدو لغانين الآن أن مثل هذا الإحساس المسبق لم يتحقق أبداً تماماً كما حصل الآن. وظلّ نهاره كله يتنقل من جنينة الى جنينة ومن مقهى الى مقهى وكانت ذكرياته تطير أمامه كما سحب نيسان في سماء برلين الرقيقة. كان الجالسون في المقاهي يفترضون أنْ لابدّ من أن ألماً عميقاً ألمّ بهذا الشخص المحدّق أمامه بهذه النظرة الثابتة، أما هو فكان في شروده يصطدم بعابري السبيل في الشارع، بل إن سيارة مسرعة كبحت فراملها بعنف وأطلقت شتيمة بعد أن كادت تصدمه.

كان إلهاً يستعيد بناء عالم اندثر. كان يبعث شيئاً فشيئاً هذا العالم كرمى امرأة لم يجرؤ بعد على وضعها فيه قبل أن يكتمل نهائياً. لكن صورتها، حضورها، ظِلّ ذكراها كانت تقضي بأن يبعثها هي أيضاً، لكنه كان يبعد صورتها عن عمد، ذلك أنه كان يرغب في الاقتراب منها شيئاً فشيئاً، خطوة خطوة، تماماً مثلما حدث هذا قبل تسع سنوات. وخشية أن يرتبك ويضيع في متاهة الذاكرة المشرقة كان يعيد بناء دربه السابق بحذر وحرص، يرجع الى أمر تافه منسيّ لكنه لايستبق الأمور. كان وهو يهيم على وجهه في يوم الثلاثاء الربيعي هذا في برلين يتعافى فعلاً، يحسّ بأول نهوض له من السرير بوهن في رجليه. كان ينظر الى نفسه في كل المرايا. ملابسه الداخلية والخارجية كانت تبدو نظيفة بشكل غير عادي وواسعة وغريبة قليلاً. كان يتنقل ببطء في الممشى الواسع الذي يمتد من ساحة البيت الى غياض الحديقة. وهنا وهناك كانت تنتفخ على الأرض المسطّرة بفعل ظلال الأوراق تلال سود من الديدان ـ وهذا من صنيع الخُلْدان. لبس بنطالاً أبيض وجوارب ليلكية. كان يحلم بأن يلقى شخصاً ما، أي شخص في الحديقة – لكن مَنْ؟ هذا ما لم يكن يعرفه بعد.

حين بلغ نهاية الممشى حيث كان يلمع في الخضرة الداكنة لأوراق الشوح والصنوبر مقعد طويل أبيض استدار عائداً وظهر أمامه عن بعد، في الفرجة بين أشجار الزيزفون، الحصى البرتقالي لساحة الجنينة والزجاجُ اللامع للشرفة.

عادت الممرضة أدراجها الى بطرسبرج ـ ظلّت طويلاً تطلّ من العربة، تلوّح بيدها القصيرة وكان الهواء يؤرجح خمارها. مضت الأيام بهيجة، نشطة. في العزبة كانت برودة ومعاطف شمس على أرض الغرف. وبعد أسبوعين كان ينطلق على دراجته الى هنا وهناك حتى يكاد يفقد وعيه، وفي المساء يلعب باندفاع لعبة الخمسة أوتار مع ابن البقّارة. وبعد أسبوع آخر حدث ما كان يتوقّعه بقوّة. «وأين اختفى هذا كله ـ تنهّد غانين ـ أين الآن هذه السعادة والشمس، هذه الأوتاد التي تصلصل وتتدحرج بهذه الروعة، أين دراجتي بمقودها الواطىء وأدائها العظيم؟ . . . هناك قانون ما يقول ان لاشيء يضيع، وأنه لايمكن إبادة المادة، إذ لاتزال توجد في مكان ما وحتى هذه الساعة جذاذات من لعبة أوتادي، وأشعة من دولاب دراجتي. لكن المصيبة أنك لن تجمعها مرّة أخرى ـ أبداً. لقد قرأت عن «العودة الأزلية. . . » وماذا إن لم تنجح هذه اللعبة المعقدة مرّة أخرى؟ هذا ما لاأستطيع فهمه على الإطلاق. . نعم: هل سيموت هذا كله معي حقاً؟ أنا الآن وحيد في مدينة غريبة. سكران. رأسي ينفلق من الكونياك والبيرة. رجلاي اهتزّتا واصطكتا بما فيه الكفاية. وبعد قليل قد ينفقع قلبي وينفقع معه العالم كله. . . لاأستطيع أن أفهم. . . ».

ووجد نفسه من جديد في نفس الجنينة، لكن البرد كان قد اشتد كثيراً، وكانت الشمس قبيل المغيب قد اكتست شحوب الغيبوبة.

– بقيت أربعة أيام: الأربعاء، الخميس، الجمعة، السبت. وأنا يمكن أن أموت الآن. .

– شدّ حيلك! –غمغم على حين غرّة وقطّب حاجبيه الداكنين – كفى. آن أوان العودة الى البيت.

التقى على عتبة الدرج بألفيروف يدسّ المفتاح في مزلاج المصعد وقد تحدّب قليلاً في معطفه الواسع جداً وزمّ شفتيه في جدّ وكدّ.

- ذاهب لأشتري جريدة ياليف غليبوفتش. هل تريد فنتمشى معاً؟

- أشكرك - قال غانين واتجه الى غرفته.

لكنه توقف وقد أمسك بمقبض الباب. تملّكه إغواء خاطف. سمع ألفيروف يدخل المصعد والآلة تهبط الى أسفل بهدير أصم وصعب وتصطكّ هناك.

«راح... - فكّر غانين في سرّه وهو يعض شفتيه - آه، ياللشيطان... سأجازف...» وشاء القدر أن تطرق كلارا باب ألفيروف بعد نحو خمس دقائق لتسأله إن كان لديه طابع بريدي. كان النور يلوح أصفر من خلال الزجاج العلوي الأربد للباب ولهذا قررتْ أن ألفيروف في البيت.

- ألكسي ايفانوفتش، - قالت كلارا وهي تطرق الباب وتشقه في آن، - ألا يوجد عندك...

وتلعثمت مشدوهة. كان غانين يقف عند الطاولة. دفع الدرْج على عجل. التفت وهو يبرق بأسنانه ودفع الدرج بوركه وانتصب.

- آه، ياإلهي - قالت كلارا بصوت خافت ونكصت على عقبيها خارجة من الغرفة.

خطا غانين نحوها بسرعة مطفئاً الضوء في طريقه وصاكّاً الباب. استندت كلارا الى الجدار في الممرّ نصف المعتم وراحت تنظر اليه في رعب وقد ضغطت بيديها المنفوختين الى صدغيها.

- ياالهي... - كرّرت بنفس الصوت الخافت -كيف تجرأت...

وبهدير بطيء كأنما يلهث تحرّك المصعد يطفو الى فوق.

- عاد . . . - همس غانين بصوت ملغز .

- آه، لن أفشي الأمر ، - قالت بصوت عال وبمرارة دون أن ترفع عنه عينيها البـراقـتـين النديتـين - لكن كـيف تجـرأت؟ إنه لـيس أغنى منك . . . لا ، لا ، هذا كابوس .

- هيا بنا إليك ـ قال غانين مبتسماً - أنا مستعدٌ لأن أوضح لك . . .

انسلخت ببطء عن الجدار وطأطأت رأسها ومضت الى غرفتها . كان الجوّ هناك دافئاً، مشبعاً بروائح عطور جيدة ، وعلى الجدار نسخة من لوحة بكلين «جزيرة الأموات»، وعلى الطاولة الصغيرة صورة ، وجه لودميلا المُسوَّى كثيراً .

- لقد تخاصمنا ، - قال وهو يومىء باتجاه الصورة . . - لاتناديني اذا حضرتْ إليك . انتهى كل شيء .

تربعت كلارا على المتكأ وراحت تنظر الى غانين في عبوس وهي تلتفع بشالٍ أسود .

- هذه كلها حماقات ياكلارا ، - قال وهو يجلس الى جانبها ويستند الى ذراعه المنصوبة . - هل تظنين حقاً أني كنت أسرق نقوداً بالفعل؟ لكن من الطبيعي ألا أشعر بالارتياح إن عرف ألفيروف أني تسللت الى طاولته .

- ماالذي كنت تفعله إذاً؟ وأي شيء غير هذا يمكن أن يكون وارداً؟ - همست كلارا . - أنا لم أكن أتوقع منك هذا ياليف غليبوفتش .

- كم أنت مضحكة حقاً ، - قال غانين ولاحظ أن عينيها الواسعتين الودودتين الجاحظتين قليلاً أخذتا تلمعان على نحو بالغ وأن كتفيها يرتفعان ويهبطان على نحو زائد تحت شالها الأسود .

- كفى ، - قال مبتسماً . - طيّب ، لنفرض أني لصّ، فتّاح أقفال . لكن لماذا يقلقك هذا كل هذا القلق؟

- أخرج من فضلك، - قالت كلارا بصوت خافت وأشاحت بوجهها. انفجر ضاحكاً وهزّ كتفه. . .

حين انغلق الباب وراءه بكت كلارا، وبكت طويلاً وبدموع برّاقة ثقيلة كانت تظهر بانتظام على أهدابها وتزحف قطرات متطاولة فوق خديّها الملتهبين من النشيج والنحيب.

- المسكين، - غمغمت كلارا، - الى أين انتهت به الحياة. وماذا بوسعي أن أقول له. . .

علت طرقة خفيفة على الجدار من غرفة الراقصين. مخطَت كلارا بقوة وأصاخت السمع. تكررت الطرقة من جديد ناعمة كطرقة النساء: إنه كولين يطرق بالتأكيد. ثم كرّت ضحكة وصاح أحدهم: «أليك، إيه أليك، كفى. . .» وأخذ الصوتان يهذرمان بصوت أصمّ وحنون.

فكرت كلارا أن عليها أن تذهب كحالها دائماً الى الوظيفة وأن تنقر حتى السادسة على الأزرار وتتابع السطر الليلكي الذي يتدفق بطقطقة حُبَيْبية على الورقة أو أن تقرأ إن لم يكن هناك شغل - تسند الكتاب المعار، المهترىء بشكل مخجل وتقرأ. غلت لنفسها شاياً، وتعشت بوهن ثم خلعت ملابسها طويلاً وهي تتنهّد وتتحرك بكسل. سمعت وهي راقدة في السرير أصواتاً الى جانبها، في غرفة بودتياغين، شخص ما كان يدخل ويخرج، وعلى حين غرّة قال صوت غانين شيئاً ما بصوت عال، أجاب بودتياغين بصوت خافت، محطّم. تذكرت أن العجوز ذهب اليوم مرّة أخرى من أجل جواز السفر وأنه مصاب بمرض عضال في القلب وأن الحياة تمضي: يوم الجمعة يكتمل عامها السادس والعشرون. وكانت الأصوات مازالت تدوي، وبدا لكلارا أنها تعيش في بيت من زجاج يتأرجح ويسبح الى مكان ما. كان ضجيج القطارات المسموع بوضوح خاص في ذلك الجانب من الممر يصل الى هنا أيضاً وكان السرير كأنما يعلو ويتأرجح. مرق أمامها ظهر غانين الذي كان ينحني فوق الطاولة ويلتفت الى الوراء مكشراً عن

أسنانه اللامعة . ثم غفت، وفي نومها رأت أمراً كريهاً : كأنما جلست في حافلة كهربائية والى جانبها امرأة عجوز تشبه الى حدّ غير عادي عمتها التي تعيش في لودزي تقول شيئاً بالألمانية وبسرعة، ثم يتبين شيئاً فشيئاً أن هذه ليست عمتها بل تلك البائعة البشوش التي تشتري منها البرتقال وهي في طريقها الى وظيفتها .

﴿ ٥ ﴾

في هذا المساء جاء انطون سيرغييفتش ضيف . كان هذا الضيف سيداً عجوزاً ذا شاربين مائلين الى الصفرة مقصوصين على الطريقة الانكليزية ، وقوراً، في ملابس جدّ أنيقة، يرتدي سترة وبنطالاً مخططاً . كان بودتياغين يكرمه بسكب مرقة «ماجي» له حين دخل غانين . كان الهواء مائلاً الى الزرقة بفعل بخار السجائر .

– السيد غانين، السيد كونيتسين . – وضغط انطون سيرغييفتش بيده الطرية غانين يُجْلسه في الأريكة وهو يبرق بزجاج نظارته الأنفية وينخر .

– هذا ياليف غليبوفتش زميلي القديم في المدرسة، كان يهرّب لي الأجوبة في الامتحانات .

كشّر كونيتسين .

– كانت أيام، – قال بصوت منخفض مدوّر . – والآن اسمح لي أيها العزيز انطون سيرغييفتش أن أسألك كم الساعة؟

– تباً لك، الساعة ولاّدية، يمكنك المكوث قليلاً .

نهض كونيتسين، شدّ صدرته .

– زوجتي تنتظر، لاأستطيع .

- وماذا باليد، لاأتجرأ على الاحتفاظ بك، - بسط انطون سيرغييفتش ذراعيه مبهوتاً، وألقى نظرة جانبية، من خلال نظارته على الضيف: - بلّغ زوجتك تحيتي. لم أتشرف بالتعرّف إليها، لكن بلّغها التحية.

- أشكرك، - قال كونيتسين - تشرّفنا. - بالإذن. المعطف، يبدو أني تركته في المدخل.

- سأرافقك قليلاً، - قال بودتياغين. - المعذرة من فضلك ياليف غليبوفتش، أنا عائد للتو.

اتخذ غانين لنفسه، وقد بقي وحده، جلسة أريح في الأريكة الخضراء القديمة وابتسم وهو غارق في أفكاره. لقد عرّج على الشاعر لأنه ربّما كان الانسان الوحيد القادر على فهم اضطرابه. كان بوده أن يحدثه عن أشياء كثيرة - عن الأصائل فوق الشارع الروسي، عن أدغال أشجار البتولا. فقد كانت لبودتياغين إيّاه في المجلاّت القديمة المجلّدة مثل «فسيميرنايا إلوستراتسيا» و«جيفابيسيني أوبوزرينيه» أبيات شعر تحت الرسوم الصغيرة في مطلع الفصول.

عاد انطون سيرغييفتش وهو يهزّ رأسه بتجهم.

- أهانني، - قال وهو يجلس الى الطاولة وينقر بأصابعه - آه ماأشد إهانته..

- ماالأمر؟ - ابتسم غانين.

نزع انطون سيرغييفتش نظارته ومسحها بطرف السماط.

- إنه يحتقرني، هذا هو الموضوع. أتعرف ما قال لي قبل قليل؟ نظر إلي وهو يبتسم ابتسامة باردة وقال أنت كتبت شعراً، وأنا لم أقرأه: ولو أني قرأت لأضعت الوقت الذي كرسته للشغل. هاك ماقاله لي ياليف غليبوفتش. وإني لأسألك: هل هذا تصرّف ذكي؟

- ومن يكون هذا؟ -سأل غانين.

- الشيطان أدرى، يكدّس أموالاً. آه، إنه شخص لاأعرف كيف...

- وما المهين في هذا، ياانطون سيرغييفتش؟ له شأنه ولك شأنك. وأنت أيضاً تحتقره على الأرجح.

- آه، ياليف غليبوفتش - قال بودتياغين وقد بدأ ينفعل - ألست على حق إن احتقرته؟ لكن ليس هذا هو الشيء الفظيع، الفظيع هو أن انساناً كهذا يتجرأ على عرض مال علي. . . - وبسط قبضته ورمى الطاولة بورقة مدعوكة - الفظيع أني أخذت. تفضّل، استمتع برؤيتها - عشرون ماركاً، ليأخذها الشيطان.

استبدّ الاضطراب بالعجوز، كان يلوك شفتيه، والثنية الشائبة تحت شفته السفلى تنط وأصابعه الغليظة تنقر على الطاولة. ثم تنهّد بأزيز مرضيّ وهزّ رأسه.

- بيتكا كونيتسين. . . وكيف لا، أذكر كل شيء. . كان يدرس بشكل جيد، السافل. وكم كان دقيقاً من حيث الساعة. كان أثناء الدرس يبيّن لنا بإصبعه كم بقيت دقيقة حتى قرع الجرس. أنهى المرحلة الأولى بميدالية.

- لابدّ أنه أمر غريب منك أن تتذكر هذا، -قال غانين متفكّراً، - ومن الغريب بشكل عام أن يتذكر الواحد منا ولنقل ماحدث قبل ساعات- تافهة يومية أو حتى غير يومية.

نظر إليه بودتياغين باهتمام ورقّة.

- ما الذي حصل لك ياليف غليبوفتش؟ وجهك كأنما أكثر إشراقاً. أو تكون عشقت مرة أخرى؟ أما من حيث غرائب الذكرى. . . ويحك، ماأحلى ابتسامتك. . .

- لم آتك عبثاً ياانطون سيرغييفتش. . .

- وأنا كان كونيتسين ضيافتي لك. تمثّل به. أنت كيف كانت دراستك؟

- لابأس - ابتسم غانين مرة أخرى - معهد بالاشوف في بطرسبرج هل تعرفه؟ - تابع وهو يطابق قليلاً بين لهجته ولهجة بودتياغين كما يحدث مراراً للواحد منا وهو يحدّث عجوزاً - أذكُر الملعب ذاك. كنّا نخبط بكرة القدم. تحت كانت تُصف أخشاب. وكانت الكرة كثيراً ماتطوّح بها.

– نحن كنا نلعب أكثر لعبة المضرب وأيضاً لعبة القازاقيين قطّاع الطرق، – قال بودتياغين وأضاف بغتة: وهاهي الحياة قد مضت.

– وأنا، لو تدري ياانطون سيرغييفتش، تذكرت اليوم المجلات القديمة التي كانت فيها أشعارك. وأدغال أشجار البتولا.

– تَذكرُ حقاً، – قال العجوز بلهجة رقيقة وساخرة وهو يستدير نحوه. – مغفل أنا، مغفل، فأنا بسبب أشجار البتولا هذه أغفلت حياتي كلّها، روسيا كلها. والآن لم أعد، والحمد لله، أكتب شعراً. انتهى الأمر. بل صرت أشعر بوخز الضمير حين أكتب في الاستمارة كلمة «شاعر». وبالمناسبة اليوم أيضاً لم أفقه شيئاً. حتى الموظف اغتاظ. غداً سأذهب من جديد.

نظر غانين الى ساقيه وأخذ يتكلم على مهل:

– في الصفوف الأخيرة في المدرسة كان رفاقي يظنون أن لي عشيقة وأي عشيقة: سيدة من المجتمع الراقي. كانوا يحترمونني لهذا. ولم أكن أردّ على هذا لأني أنا نفسي كنت نشرت هذه الشائعة.

– هكذا إذاً، – هزّ بودتياغين رأسه. – فيك شيء من الخبث ياليفوشكا. . . هذا جيد. .

– أما في الواقع فقد كنت طاهراً الى حدّ مضحك. ولم أكن أعاني من هذا الطهر إطلاقاً. كنت افتخر به بوصفه سراً خاصاً متيمزاً، بينما كان يبدو للغير أني شديد الخبرة. والحقيقة أني لم أكن على الاطلاق خجولاً أو شديد الحياء. أنا ببساطة كنت أعيش في داخلي حياة جدّ مريحة وانتظر. أما رفاقي أولئك الذين كانوا يفحشون في الكلام وكانت أنفاسهم تتقطع لدى سماعهم كلمة «امرأة»، فكانوا جميعاً كثيري البثور، كثيري القذارة، ذوي راحات مبلولة. ولبثورهم هذه كنت أحتقرهم. وكانوا يكذبون بشكل جدّ كريه بشأن أمورهم الغرامية.

- لاأستطيع أن أخفي عنك أني بدأت من الخادمة، -قال بودتياغين بصوته الأربد - وكم كانت رائعة، هادئة ذات عينين رماديتين. كان اسمها غلاشا. انظر ماحدث.

- لا، أنا كنت انتظر، - قال غانين بصوت خافت. - من الثالثة عشرة حتى السادسة عشرة هناك ثلاث سنوات. حين كنت في الثالثة عشرة كنّا نلعب ذات مرة لعبة «الاختفاء» واتفق أن وجدت نفسي مع رفيقي في صوان ملابس. وهناك في العتمة أخبرني أن في هذه الدنيا نساء رائعات يَسمَحْن بأن يُعرَّين لقاء مال. لم التقط تماماً كيف أسماهنّ، وجرت على لساني كلمة «برينستيتوتكا» - كلمة هي مزيج من كلمتي طالبة وأميرة. ولهذا بدت لي صورتهن ساحرة بنوع خاص وعلى درجة كبيرة من الإلغاز. لكني سرعان ماأدركت بطبيعة الحال أني أخطأت ذلك أن تلك النسوة اللواتي يتهادين في شارع نيفسكي جيئة وذهاباً ويناديننا «بأقلام الرصاص» لم يغررنني إطلاقاً. وهاك، بعد ثلاث سنوات من هذه الدرجة الكبيرة من الأنفة والطهر جاءت ساعتي. كان هذا عندنا في القرية صيفاً.

- هكذا إذاً، هكذا، - قال بودتياغين - هذا كله مفهوم. إنما هذا مُضْجِر بعض الشيء. ستة عشرة سنة، أدغال، حب. . .

تطلع إليه غانين بفضول.

- وما يمكن أن يكون أفضل من هذا، ياانطون سيرغييفتش؟

- آه، لاأدري، لاتسألني ياعزيزي. أنا نفسي خَصَيْت حياتي بالشعر، والآن بات الوقت متأخراً لبدء الحياة من جديد. لكن يتهيأ لي أنه من الأفضل، في نهاية المطاف، أن يكون الواحد ذا دم حار، رجلَ عملٍ، وإذا ماشرب وأكل ومرح فعليه أن يفعل هذا بحيث تفقع المرايا.

- وهذا ماكان، - ابتسم غانين في سخرية خفيفة.

فكّر بودتياغين دقيقة.

– ها أنت تتحدث عن القرية الروسية ياليف غليبوفتش . لربما تيسر لك أن تراها مرّة أخرى . أما أنا فمقدّر علي أن أهلك هنا . وإن لم يكن هنا ففي باريس . أنا اليوم أشعر بخمول زائد . اعذرني .

صمتا كلاهما . عبر قطار . أطلقت القاطرة صرخة لاأثر لكلفة فيها ولاعزاء . كان الليل يزرقّ ببرودة في الزجاج غير المحجوب عاكساً ظُلّة المصباح وطرف الطاولة المضاءة . كان بودتياغين يجلس محدودب الظهر مطأطئاً رأسه الأشيب مقلّباً بين يديه غلاف علبة سجائره الجلدي . وما كان بوسع أحد أن يقول فيما كان يفكر . هل كانت هذه أفكاراً عن حياته الماضية الباهتة أم أن الشيخوخة والمرض والفاقة كانت تتراءى أمامه مع الصفاء الداكن لانعكاسات الليل ، هل كانت هذه أفكاراً عن جواز السفر ، عن باريس أم كانت ببساطة مجرّد فكرة مملّة عن أن الزخرف الذي أمامه على السجّادة يسع بالتمام بوز الجزمة وأنه يحسن أن ينهض ويشرب بعض البيرة الباردة ، وأن الضيف قد أطال الزيارة وأنه لايتهيأ للخروج . – الله أعلم . لكن غانين شعر وهو يرنو الى رأسه الكبير المطأطىء والى زغب الشيخوخة في أذنيه ، والى كتفيه اللذين كورّهما عمله المضني ككاتب ، شعر بغتة بحزن جعله لايرغب في الحديث لا عن الصيف الروسي ولا عن مماشي الحديقة ولا ، بصورة خاصة ، عن ذلك الشيء المدهش الذي حدث بالأمس .

– أنا خارج . نوماً هادئاً ياانطون سيرغييفتش .

– ليلة سعيدة ياليفوشكا – تنهّد بودتياغين - تحدثنا مليّاً معاً . وهاأنت لاتحتقرني لأني أخذت من كونيتسين نقوداً .

وفي الدقيقة الأخيرة فقط توقف غانين وقد صار عند عتبة الغرفة وقال :

– أتعرف ياانطون سيرغييفتش؟ بدأت معي قصة رائعة جداً . أنا الآن ذاهب إليها . أنا في غاية السعادة .

– هكذا إذاً ، هكذا . بلغها تحيتي وسلامي ، ليس لي شرف معرفتها ، لكن مع هذا بلغها تحيتي وسلامي .

﴿ ٦ ﴾

لايذكر، وهذا أمر غريب، متى رآها أول مرّة بالضبط. ربّما في الحفلة الموسيقية التي أقيمت في الفيلا في الجَرين الكبير في المرج. ولعله رآها قبل هذا إنما رؤية خاطفة. كان كأنما يعرف ضحكتها وعقدتها الكبيرة ذات الدكنة اللطيفة حين حدثه ممرّض متدرب في جناح المستشفى العسكري المحلي عن صبية «لطيفة ورائعة» - كما عبّر عن ذلك الممرّض المتدرب - لكن هذا الحديث جرى قبل الحفلة. كان غانين يشحذ الآن ذاكرته عبثاً. لم يكن قادراً على أن يتصور أول لقاء، أول لقاء بالضبط. والموضوع هنا هو أنه كان ينتظرها بلهفة ويفكر فيها كثيراً في تلك الأيام المغبوطة التي تلت التيفوئيد بحيث صنع صورتها الفريدة قبل أن يراها بوقت بعيد، ولهذا بالذات بدا له الآن، بعد مضي سنوات كثيرة، أن ذلك اللقاء الذي تخايل له وذاك اللقاء الذي جرى في اليقظة يندمجان، يذوب أحدهما في الآخر خفية لأنها، حيّةً، لم تكن سوى استمرار منسجم للصورة التي أنبأت بها.

وذات مساء من تموز ضغط غانين على الباب الحديدي الحلو الإيقاع للجناح الأمامي وخرج في زرقة الغسق. في الغسق كانت الدرّاجة تمضي بخفّة متميزة، وكان الإطار يتلمّس بحفيف كل ارتفاع وكل انحناءة في الأرض المداسة على جانب الطريق. وحين انزلق قرب الاصطبل المظلم انبعث من هناك دفء ونخير طرقة ناعمة من حافر إنزاح. وبعد ذلك طوّقت الطريق من جانبيه أشجار بتولا عديمة الصوت في هذه الساعة، وعلى مبعدة منه قليلاً، وسط المرج كان ضوء ناعم وكأنما يدعر حريق في بيدر. وكان الناس يهدرون كما في أيام العيد وهم يمضون على مهل ودون اتساق عبر الحقول العاتمة الى الجِرين القائم بمفرده.

في الداخل رُكّبتْ خشبة مسرح وصفُّت مقاعد، وكان النور يغمر الرؤوس والأكتاف ويتراقص في العيون وتفوح رائحة حلوى السكّر والكيروسين. تجمّع عدد كبير من الناس؛ في المؤخرة توزّع الفلاحون والفلاحات، وفي الوسط أصحاب وصاحبات الفيلات، أما في المقدمة فقد جلس نحو عشرين جندياً متجهماً، هادئاً من المستشفى العسكري الريفي، في الزرقة الرمادية لرؤوسهم الحليقة المستديرة بقعٌ من صلع، جلسوا على مقاعد بيضاء طويلة. وعلى الحيطان المزينة بأوراق الشوح كانت هنا وهناك شقوق يتطلّع من خلالها الليل المليء بالنجوم وكذلك الأطياف السود للفتية الصغار الذين اعتلوا في الجهة المقابلة جذوع الأشجار المكوّمة عالياً.

كان مغني «الباص» النحيل، ذو الوجه الشبيه بوجه الحصان، الواصل من بطرسبرج ينفجر بصوت راعد أصم، وكانت الجوقة المدرسية المستجيبة لرنّانة التنغيم تصاحبه في الغناء.

ووسط هذا البهاء الأصفر الحار، ووسط الأصوات التي صارت مرئية على شكل ثنايا محارم قرمزية وفضيّة وأهداب غامزة وأطياف سود على العوارض العليا التي كانت تنزاح حين تهب نسمة ليلية، ووسط هذا البريق وهذه الموسيقا الرخيصة، ووسط كل الأكتاف والرؤوس في هذا الجرين الضخم الغاص بالناس، كان شيء واحد يستغرق غانين: كان يتطلع أمامه الى جديلة كستنائية ذات عقدة سوداء مثلّمة قليلاً في طرفها، وكان يمسح بعينيه ألق شعرها الداكن، المتسق عند اليافوخ على طريقة الفتيات. وحين كانت تلتفت جانباً متوجهة الى جارتها بنظرة سريعة ضاحكة، كان يرى أيضاً حمرة خدّها الداكنة وطرف عينها التترية المتوقدة والثنية الرقيقة لمنخرها الذي كان يضيق حيناً ويتسع حيناً آخر من الضحك.

وفيما بعد، حين انتهى كل شيء وأضاءت سيارة المعمل الضخمة العشب بنور خفي ثم بهرت برشقة من الضوء شجرة البتولا الغافية والجسر الصغير فوق القناة وحملت المغني القادم من العاصمة، وطفتْ في العتمة الزرقاء على الندى

البرسيمي نزيلات الفيلات يَمسْنَ متلألئات بياضاً وبهجة، وراح أحدهم يشعل سيجارته ممسكاً بين كفيه النارَ الناشبة قرب وجهه المضاء، مضى غانين مضطرباً ووحيداً الى البيت وهو فوق السرج يدحرج درّاجة تكاد قضبان دواليبها لاتطقطق.

كان شباك المرحاض القديم الطراز في جناح البيت القائم بين بيت المؤونة وغرفة مدبرة البيت الصغيرة يطل على القسم المهمل من ساحة الحديقة حيث كان يبدو في ظل السقيفة الحديدية زوج مسودّ من العجلات فوق البئر ويمتد فوق الأرض ميزابا بالوعة خشبيّان بين الجذور المتلوية المكشوفة لثلاث حَوْرات ضخمة تطاولت عرضاً. كان الشباك مزخرفاً: حاملُ رمح يبدي على الزجاج لحيته المربعة وبطّات ساق قوية، وكان يلمع على نحو غريب في الوهج الباهت لمصباح الغاز ذي العاكس التنكيّ المتدلّي قرب شريطٍ مخملي ثقيل. تسحبه فيغلي في باطن الأريكة البلوطية الخفي هدير رطب وجُرْعات خافتة. دفع غانين إطار الشباك الملوّن أبعد وجلس واضعاً رجليه على القاعدة. وكان الشريط المخملي يهتزّ بهدوء وكانت السماء المنّجمة بين أشجار الحور السوداء على نحو ودَّ معه لو تنهّد تنهيدة أعمق. وهذه الدقيقة التي كان جالساً فيها على قاعدة شبّاك المرحاض البلوطي المعتم وراح يفكّر في أنه، على الأرجح، لن يتعرّف أبداً، أبداً عن قرب الى الفتاة ذات الضفيرة السوداء المنسحبة على قذالها اللطيف، وينتظر عبثاً أن يشقشق بلبل بين أشجار الحور- هذه الدقيقة كان غانين يعتبرها الآن عن حقّ الأهمّ والأسمى في حياته كلها.

لم يكن يذكر متى رآها من جديد، في اليوم التالي أو بعد أسبوع. عند الأصيل وقبل جلسة الشاي كان يرف على نابض جلدي مرن ويستند بيديه على قرني المقود وينطلق مباشرة في الغسق. كان يختار دائماً الطريق نفسه، طريقاً دائرياً الى جانب قريتين تفصل بينهما غابة صنوبر ينتهي الى طريق بين الحقول ومن ثم يعود الى البيت عبر قرية «فوسكريسنك» الكبيرة الراقدة عند نهر «أوريدج» التي تغنّى بها ريلييف. كان يعرف مسالك الطريق الضيق، المدكوك، المنسرب

بمحاذاة قناة خطرة حيناً والمبلّط بالزلط الذي كان الدولاب الأمامي يقفز عليها حيناً آخر، والمحفّر أخاديد غدّارة حيناً ثالثاً، والمستوي، الأملس الوردي والصلب حيناً رابعاً، كان يعرف هذا الطريق بالحسّ واللمس وبالعين كما يُعرف الجسد الحي وكان ينطلق فوقه دون عائق ضاغطاً الدواستين المطّاطيتين في الفراغ المهسهس.

كانت شمس المساء ترقد خطوطاً نارية موردّة على الجذوع الحرشاء في غابة الصنوبر الصغيرة. ومن حدائق الفيلات كانت تتناهى طرقة كريات الكروكيت، وكان البعوض يتهافت على فمه وعينيه.

كان يتوقف أحياناً في الطريق عند هرم من الحصباء يطنّ فوقه في خواء ونعومة عمود تلغراف خرّشته حزوز زرق رمادية ويرنو عبر الحقل وهو يستند الى الدراجة الى واحدة من حواشي الغابات التي لاتوجد إلا في روسيا، حاشية بعيدة، مسننة، سوداء، وكان الغروب الذهبي فوقها لاتقطعه إلا سحابة ليلكية واحدة تنتشر الأشعة من تحتها على شكل مروحة نارية. وكان، وهو يتطلع الى السماء ويصغي كيف تخور البقرة هناك، في البعيد البعيد في القرية، خواراً يكاد يكون حالماً، يجهد لفهم مايعني هذا كله- هذه السماء وهذه الحقول، وهذا العمود المدندن؛ كان يتهيأ له أن ماهي لحظة إلا ويفهم، لكن رأسه كان يأخذ في الدوران بغتة، والكلل المشرق يغدو لايطاق.

لم يعرف أبداً أين يلقاها، أين يلحق بها، عند أي منعطف طريق، في هذه الدغلة أم في التالية. كانت تعيش في «فوسكريسنك»، وكانت مثله تخرج في الساعة نفسها لتهيم في صحراء المساء المشمس. كان يلحظها عن بعد فتتسرب البرودة الى صدره فوراً. كانت تمضي بسرعة داسّة يديها في جيبي سترة صوفية زرقاء غامقة، بلون التنورة، فوق بلوزة بيضاء، وكان غانين يلحق بها كالريح الهادئة، ولم يكن يرى سوى ثنايا القماش الأزرق المشدودة والمتماوجة قليلاً على ظهرها وكذلك العقدة الحريرية السوداء الباسطة أجنحتها. لم يتطلع، وهو يطير

قربها، مرّة واحدة الى وجهها، بل كان يتظاهر بالاستغراق في سيره، مع أنه كان قبل دقيقة يُقسم، وهو يتمثّل اللقاء، بأنه سيبتسم لها ويحييها. كان يبدو له في هذه الأيام أن لابدّ أن يكون لهـا إسم مـرنان، غيـر عـادي، وحين عـرف من الطالب الممرّض إياه أن اسمها ماشينكا، لم يستغرب وكأنه كان يعرف مسبقاً – ودوّى هذا الاسم البسيط على نحو جديد بالنسبة إليه، مفعماً بخطورة ساحرة.

– ماشينكا، ماشينكا، – همس غانين ـ ماشينكا . . . – وعبّ مزيداً من الهواء وتجمّد وهو يستمع الى قلبه كيف يدقّ. كانت الساعة حوالي الثالثة ليلاً، وكانت القطارات لاتمرّ ولهذا تهيأ له أن البيت توقف. وعلى الكرسي كان قميص ملقى في الظلمة يلوح في بياض غامق وقد بسط يديه كإنسان أخذه الذهول أثناء الصلاة.

– ماشينكا، – كرّر غانين مرّة أخرى وهو يجهد لأن يضمّن هذه المقاطع الثلاثة كل ماكان يصدح فيها سابقاً: الريح وطنين أعمدة التلغراف والسعادة وكذلك صوت مكنون كان الحياة نفسها لهذه الكلمة. كان مستلقياً على ظهره يستمع الى ماضيه. وفجأة تردّد خلف الجدار برقةٍ وخفوتٍ وإلحاحٍ: توووو . . تو . . تو – تو . . . – كان ألفيروف يفكر في يوم السبتٍ.

﴿ ٧ ﴾

في اليوم التالي، الأربعاء، صباحاً انسلت يدُ إيريكا المغراء الى غرفة الثاني من نيسان ورمت على الأرض ظرفاً أبيض ليلكياً. وعلى الظرف تعرّف غانين بلا مبالاة الى الخط المائل، الضخم، السليم تماماً. كان الطابع ملصوقاً رأساً على عقب وفي الزاوية ترك إصبع إيريكا الثخين أثراً دهنياً. كان الظرف معطّراً بكثافة، وخطر لغانين أن تعطير رسالةٍ يشبه رشّ عطر على جزمة كيما تقطع شارعاً. نفخ خديه ونفث الهواء ودسّ الرسالة غير المفضوضة في جيبه. وبعد بضع دقائق عاد فأخرجها وقلّبها بين يديه وألقاها على الطاولة. ثم جاب الغرفة مرتين تقريباً.

كانت أبواب النزل مفتوحة كلها. وكانت أصوات التنظيف والترتيب تختلط بضجيج القطارات التي أفادت من مجاري الهواء فدلفت الى كل الغرف. كان غانين الذي يلازم البيت صباحاً يقوم هو نفسه بإزالة الأوساخ وترتيب السرير. والآن تذكر فجأة أنه لليوم الثاني على التوالي لم ينظف الغرفة فخرج الى الممر يبحث عن المكنسة والممسحة. هسهست ليديا نيقولايفنا والسطل في يدها الى جانبه وسألته «على الماشي»: «هل سلّمتك إيريكا الرسالة؟».

هزّ غانين رأسه بصمت وأخذ المكنسة من على الصندوق المصنوع من خشب السنديان. رأى في مرآة المدخل العمق المنعكس فيها لغرفة ألفيروف التي كان بابها مفتوحاً على مصراعيه. في هذا العمق المشمس (وكان اليوم صافياً تماماً) كان المخروط المائل للغبار المنار يمرّ عبر زاوية المكتب، وتمثل غانين بوضوح أليم تلك الصور التي أراه إيّاها ألفيروف أول الأمر والتي عاد يقلّبها ويتأملها وحده بذاك القدر من الاضطراب فيما بعد، حين أعاقته كلارا وحالت دون ذلك. كانت ماشينكا في هذه الصور كما يذكرها تماماً، وبات من المرعب الآن أن يفكّر أن ماضيه يرقد في درج غريب.

انصفقت الانعكاسات في المرآة: كانت ليديا نيقولايفنا التي دلفت في الممرّ بخطى فأرية هي التي دفعت الباب المفتوح.

عاد غانين الى غرفته والمكنسة في يده. كانت بقعة ليلكية تجثم على الطاولة. وتذكر في توارد سريع للخواطر، التي أثارتها هذه البقعة وانعكاس الطاولة في المرآة، تلك الرسائل الأخرى، القديمة جداً المحفوظة عنده في المحفظة السوداء الموضوعة الى جانب المسدس «القِرْمي» في قاع الحقيبة.

جرف الظرف الطويل عن الطاولة وأزاح بمرفقه إطار النافذة ومزّق بأصابعه القوية الرسالة بالعرض، ثم عاد ومزّق كل قطعة ثم رمى بالمزق في الهواء. وتطايرت الكريات الورقية الشبيهة بندف الثلج تتلألأ في الهاوية المشمسة. إحدى المزق رفّت فوق قاعدة النافذة فقرأ غانين فيها بعض الأبيات المشوّهة:

طبعاً . . . أستطيع

غرام . . . أنا فقط

كيما . . . سعيد

أسقطها غانين بنقرة من إصبعه عن رفّ النافذة الى الهاوية التي كانت تفوح منها رائحة الفحم وفضاء الربيع وهزّ كتفيه هزّة المتخفف من عبء وأخذ يرتب الغرفة .

وبعد فترة سمع كيف يعود الجيران الواحد إثر الآخر الى الغداء وكيف كان ألفيروف يضحك بصوت عال وكيف كان بودتياغين يغمغم بشيء مابصوت رخو . وبعد قليل خرجت إيريكا الى الممرّ ودقّت الناقوس في كآبة .

في طريقه الى الغداء أدرك عند باب المطعم كلارا التي التفتت إليه في ذعر . فما كان من غانين إلا أن ابتسم إنما ابتسامة جميلة ورقيقة بحيث قالت في سرّها : «فرضاً أنه لصّ، إنما لامثيل له» . فتح غانين الباب ، أحنَتْ رأسها ومرّت بجانبه الى المطعم . أما الآخرون فكانوا يجلسون في أماكنهم وكانت ليديا نيقولايفنا تمسك ملعقة ضخمة بيدها الصغيرة الذاوية وتسكب الحساء في كمد .

اليوم أيضاً لم يجدّ جديد مع بودتياغين . كان الحظّ بالفعل لايواتي العجوز . سمح له الفرنسيون بالمجيء لكن الألمان لأمر ما لم يكونوا يسمحون له بالمغادرة . هذا في حين أن مابقي لديه من مال يكفيه بالضبط للمغادرة ، ولو استمرّت هذه المماطلة أسبوعاً آخر سيستنفذ ماتبقّى لديه من نقود في سبيل لقمة العيش وإذّاك لن يستطيع بأي حال الوصول الى باريس . كان وهو يشرق الحساء يروي بقدرٍ من الدعابة الحزينة والمتمهّلة كيف كانوا يطردونه من قسم الى آخر ، وكيف لم يكن بوسعه هو نفسه أن يوضح لهم مايلزمه ، وكيف أن الموظّف المتعب والمتوتر الأعصاب صرخ فيه آخر الأمر .

رفع غانين عينيه وقال :

– فلنذهب غداً الى هناك معاً ياانطون سيرغييفتش. عندي فيض من الوقت. سأساعدكم على أن تتفاهموا.

كان يتكلم الألمانية بمنتهى الجودة.

– لابأس، شكراً، –أجاب بودتياغين ولاحظ من جديد، كما بالأمس، إشراقة وجه ليفين غير العادية –هناك مايبكي. عدت ووقفت هناك في الدور ساعتين وعدت فارغ اليدين. شكراً ياليفوشكا.

– وزوجتي أيضاً ستكون لها مشاكلها، – أخذ ألفيروف في الكلام. وحدث لغانين ما لم يحدث له أبداً من قبل. أحسّ أن حمرة لاتطاق تغمر وجهه ببطء وأن جبينه ينغزه وكأنه ارتوى خلاً.

لم يخطر بباله وهو في طريقه الى الغداء أن هؤلاء الناس، ظلال حلم منفاه، سوف يتحدثون عن حياته الحقيقية الراهنة – عن ماشينكا. وتذكر برعب وبخجل أنه قبل ثلاثة أيام وعلى الغداء كان عن جهل منه يسخر مع الآخرين من زوجة ألفيروف. واليوم كان يمكن لأحد ما أن يعاود السخرية.

– وهي بالمناسبة نشطة وحاذقة، – كان ألفيروف يتابع حديثه لن تدع أحداً يسيء إليها. لن تدع أحداً يسيء إليها زوجتي العزيزة.

تغامز كولين وغورنو تسفيتوف وتهانفا... كان غانين يدحرج كرة خبز وهو يعضّ شفتيه ويخفض عينيه. كاد يعزم على النهوض والمغادرة لكنه غالب نفسه. رفع رأسه وأكره نفسه على النظر الى ألفيروف، ودهش بعد إلقاء نظرة كيف كان بوسع ماشينكا أن تتزوج من هذا الشخص ذي اللحية الخفيفة والأنف المنفوج اللامع. وفكرةُ أنه يجلس الى جانب الرجل الذي مسّ ماشينكا ويعرف لمس شفتيها وكلماتها وضحكتها وحركاتها وهو الآن ينتظرها ـ هذه الفكرة كانت مرعبة، لكنه كان يحسّ الى هذا باعتزاز مثير لدى تذكره أن ماشينكا وهبته هو وليس زوجها عبقها العميق، الفريد.

بعد الغداء خرج يتمشى ثم انسلّ صاعداً الى الباص. كانت الشوارع تنسال في الأسفل، وقامات بشرية سوداء صغيرة تتراكض فوق مرايا الاسفلت الشمسية، والباص يهتزّ ويقعقع، وكان يبدو لغانين أن المدينة الغريبة التي تمرّ أمامه ليست سوى صورة متحركة. ورأى حين عاد الى البيت بعد ذلك كيف كان بودتياغين يطرق باب غرفة كلارا، وبدا له بودتياغين أيضاً ظلاً عارضاً، نافلاً.

- صاحبنا واقع في الحب من جديد - أومأ انطون سيرغييفتش باتجاه الباب وهو يرشف الشاي عند كلارا - أوليس في حبك؟

أشاحت هذه بوجهها، ارتفع صدرها الملآن وهبط، ما كان بوسعها أن تصدق أن الأمر يمكن أن يكون هكذا؛ كانت تخشى هذا، تخشى غانين ذاك الذي كان يفتش في طاولة الآخرين، لكن مع هذا طاب لها سؤال بودتياغين.

- أوليس في حبك، يا كلاراتشكا؟ - كرر السؤال وهو ينفخ في الشاي ويرنو بطرف عينه إليها من خلال النظّارة.

- البارحة قطع علاقته بلودميلا، - قالت كلارا فجأة وقد شعرت أن بالإمكان البوح لبودتياغين بالسرّ.

- هذا ماكنت أعتقده، - هزّ العجوز رأسه وهو يحتسي الشاي بتلذّذ - ليس عبثاً أنه مشرق الذهن الى هذا الحد. على القديم السلام ومرحباً بالجديد. سمعتِ ما عرضه عليّ اليوم؟ أن يذهب معي غداً الى الشرطة.

- سأمر عليها مساء، - قالت كلارا في شرود. - المسكينة. كان لها صوت عميق أجش على الهاتف.

تنهّد بودتياغين:

- بسيطة، المسألة مسألة شباب. صديقتك لن يطول بها الأمر حتى تتعزّى وتسلو. هذا كله خير. لكن أتعرفين ياكلارا، أنا سأموت عن قريب.

- لك الله، ياانطون سيرغييفتش! يالها من سخافات.

- لا ، ليست سخافات . اليوم في الليل كانت هناك نوبة مرّة أخرى . القلب تارة في الفم ، وتارة تحت السرير . .

- مسكين أنت - أخذت كلارا تقلق - لا بدّ من طبيب .

ابتسم بودتياغين :

- كنت أمزح . بالعكس أنا في هذه الأيام جدّ مرتاح . أما النوبة فشيء لاأهمية له . أنا نفسي اختلقتها الآن لأرى كيف ستفتحين عينيك على اتساعهما . لو كنّا في روسيا ياكلاراتشكا لكان غازلك طبيب زيمستفو(*) أو مهندس معماري ذو شأن . وأنت ، هل تحبين روسيا؟

- جداً .

- تمام . روسيا يجب أن نحبها . فبدون حبّنا نحن المهاجرين ستكون نهاية روسيا . هناك لاأحد يحبّها .

- بلغت من العمر السادسة والعشرين - قالت كلارا - طوال الصباح أدقّ على الآلة ، وخمس مرّات في الأسبوع اشتغل حتى السادسة . أتعب جداً . وأنا وحيدة تماماً في برلين . كيف تظن ياانطون سيرغييفتش ، هل سيستمر الأمر طويلاً هكذا؟

- لا أعرف ياعزيزتي - تنهّد بودتياغين - بودّي لو أقول شيئاً ، لكني لاأعرف . وها أنا ذا قد اشتغلت وتدبّرت أمر مجلة هنا . . . والآن تراني صفر اليدين . لاأطلب من ربي إلاّ أن أجد نفسي في باريس . هناك مجال أوسع للعيش . مارأيك ، هل سيتحقق هذا؟

- مالك ، ياانطون سيرغييفتش ، طبعاً . غداً يسوى كل شيء .

- أوسع ، ويبدو أنه أرخص ، - قال بودتياغين وهو يلتقط بملعقته الصغيرة قطعة السكر الآخذة في الذوبان وهو يفكر في أن هذه القطعة ذات المسام فيها شيء ما روسي ، ربيعي - وبالضبط حين يبدأ الثلج في الذوبان .

(*) مجلس محلّي منتخب في الريف الروسي قبل ثورة اوكتوبر .

﴿ ٨ ﴾

إزداد يوم غانين خواءً، بالمعنى الحياتي اليومي المبتذل للكلمة، بعد قطع علاقته بلودميلا، لكن بالمقابل، لم يعد هناك الآن ملل العطالة. كانت الذكرى تشغله بحيث لم يعد يشعر بالوقت. كان ظلّه يعيش في نزل السيدة دورن أما هو نفسه فكان في روسيا، وكان يعيش ذكرياته كأنها الواقع. وكان الزمن بالنسبة إليه هو مجرى ذكرياته التي كانت تنبسط أمامه شيئاً فشيئاً. ومع أن قصته مع ماشينكا استمرت في تلك السنوات البعيدة لا ثلاثة أيام ولا أسبوعاً بل أكثر من ذلك بكثير، إلا أنه لم يكن يشعر بالتباين بين الزمن الفعلي وذاك الزمن الآخر الذي كان يعيش فيه، ذلك أن ذاكرته لم تكن تأخذ بالاعتبار كلّ لحظة بل كانت تقفز عبر الأماكن الفارغة، غير المحملة بالذكريات، لاتنير إلاّ ماكان مرتبطاً بماشينكا، ولهذا كان أن غاب التباين بين مجرى الحياة الماضية ومجرى الراهنة.

بدا أن هذه الحياة الماضية الموصلة الى حد الكمال تمتد وشياً متسقاً عبر مشاغل برلين اليومية. وكانت تلك الحياة تبعث في غانين دفئاً متصلاً أياً ما كان العمل الذي يقوم به في هذه الأيام.

لم يكن هذا مجرّد ذكرى بل حياة، حياة أشد واقعية وأشدّ «كثافة» – كما يُكتب في الجرائد – من حياة ظلّه البرليني. كانت هذه قصة مدهشة تتطور بحذر حقيقي وحانٍ.

أواخر تموز في شمال روسيا بدأت تفوح منها قليلاً رائحة الخريف. هاكم ورقة صفراء صغيرة تكاد تسقط من شجرة بتولا؛ في رحاب الحقول المحصودة خواء وإشراق كما خواء الخريف وإشراقه. وعلى امتداد طرف الحرش حيث

كانت ماتزال تلمع في الهواء جزيرة صغيرة من العشب العالي تفادت الحصّادات، تغفو نحلات متوانية على وسادات ليلكية باهتة من زهرات الجَرَب. وذات مرّة في ظلّة الحديقة...

أجل. كانت هذه الظلّة تنهض على أوتاد يتأكلها العفن فوق وادٍ ضيّق، ويؤدي إليها من الجانبين جسران صغيران مائلان زلقان بفعل أقراط الحورِ الروميّ وإبر الشوح.

كان في المعيّنات الصغيرة للنوافذ البيض زجاج متعدّد الألوان: فإن حدث ونظرت من خلال الأزرق بدا لك العالم متسمّراً في إغماءة قمرية، وإذا نظرت من خلال الأصفر بدا لك كل شيء فرحاً غاية الفرح، ومن خلال الأحمر بدت السماء وردية والأوراق كخمرة بورغوند. وكانت هناك بعض ألواح الزجاج المحطمة وكانت أطرافها الناتئة تصل بينها خيوط العنكبوت. كانت الظلّة مبيّضة من الداخل؛ وكان نزلاء الفيلات المتسللون الى الحديقة على نحو غير مشروع يخلّفون وراءهم كتابات بقلم الرصاص على الجدران وعلى الطاولة القلاّبية.

على هذا النحو أيضاً تسلّلت ماشينكا مع اثنتين قليلتي الشأن من صديقاتها. لحق بها أوّل الأمر في ممشى الحديقة المنساب على طول النهر ومرق بسرعة وقريباً منهنّ بحيث اندفعت صديقتاها جانباً وهما تولولان وتزعقان. دار حول الحديقة، اخترقها، وبعد قليل رآهن في البعد، من خلال الأوراق كيف يدخلن الظلّة. أسند الدرّاجة الى شجرة واقتفى أثرهن.

– غير مسموح للأغراب بالتنزه في الحديقة، – قال بصوت خافت أجشّ، – بل إن في الظلّة إعلاناً بهذا الخصوص.

لم تجب بكلمة إنما رمقته بعينين حولاوين برّاقتين. فسأل وهو يشير الى إحدى الكتابات الباهتة:

– أنتنّ مَنْ فعل هذا؟

أما الكتابة فكانت التالية : «في العشرين من حزيران وفي هذه الظلّة انتظرت ماشينكا وليدا ونينا انتهاء العاصفة الرعدية» .

انفجرت الثلاث جميعاً في الضحك ، وإذّاك انفجر هو أيضاً وجلس الى الطاولة الصغيرة وأخذ يهزّ رجليه ولاحظ دون مناسبة أن الجورب الحريري الأسود تمزّق عند الرسغ . وقالت ماشينكا فجأة وهي تشير الى الثقب الوردي :

– انظروا ، عندكم شمس .

تحدثوا عن العاصفة الرعدية ، عن نزلاء الفيلات وأيضاً عن أنه كان مصاباً بالتيفوئيد وعن الطالب المضحك في المستوصف العسكري وعن الحفلة الموسيقية في العنبر .

كانت لها عينان جريئتان رائعتان ووجه مائل الى السمرة مغطّى بزغب حريري جدّ رقيق يكسب وجنتيها مسحة دفء خاصة ؛ وكان منخراها ينتفخان وهي تتكلم وتتضاحك وتمتصّ الحلاوة من الساق العشبيّة ؛ كان صوتها حركاً ، ألثغ ذا أصوات صدرية غير متوقعة ، وكانت الغمّازة تهتزّ بلطف على جيدها المكشوف .

ثم رافقها وصديقتيها مع اقتراب الظلام حتى القرية . ولدى عبورهم طريق الغابة الأخضر المغطّى بالزؤان قرب المقعد الأعرج حدثهن بجدية كاملة :

– المعكرونة تنمو في ايطاليا . وحين تكون صغيرة يسمّونها فرمشيل أي دوداميشا .

اتفق وإياهن أنه سيحملهن كلّهن معه في القارب غداً . لكنها ظهرت دون صديقتيها . بسط عند الرصيف المهتزّ الجنزير المجلجل لزورق كبير ثقيل من الخشب الأحمر ونحّى النسيج المقطرن وأحكم ربط ممسكي المقذافين وسحب المجذافين من صندوق طويل وأدخل الدفّة في حلقة فولاذية .

عن بعد كانت هويسات المطحنة المائية تهدر بانتظام ، وعلى طول الغضون البيض للماء الساقط كانت الجذوع الصنوبرية القائمة تلوح بلون الذهب الضارب الى الحمرة .

جلست ماشينكا الى المقود فاندفع كالخطاف وأخذ يجدّف ببطء بمحاذاة حافة الحديقة بالذات حيث كان الحور الرومي* الكثيف ينعكس على الماء طواويس سوداً ويرف كثير من اليعاسيب الزرق المائلة الى الدكنة. ثم انعطف الى وسط النهر متلوّياً بين جزر ديباجية من النباتات المائية فيما كانت ماشينكا تمسك بإحدى يديها طرفي حبل المقود المبلّل وتسدل يدها الأخرى في الماء في محاولة لقطف رأس زنبق الماء الأصفر اللمّاع. كان الممسكان يصران لدى كل ضغطة على المجداف، وكان هو يرتد الى الوراء تارة ويندفع الى الأمام تارة أخرى. وكانت ماشينكا الجالسة قبالته عند المقود تبتعد عنه تارة وتقترب أخرى وهي في سترتها الزرقاء المكشوفة على بلوزة رقيقة خافقة الأنفاس.

كانت الضفة اليسرى الحمراء كالطين المحروق، المكسوة من أعلى بأشجار الشوح وبطمة الشمال تنعكس الآن على النهر، وكانت أسماء وتواريخ قد حفرت في المنحدر الأحمر، وفي أحد الأمكنة حفر أحدهم منذ حوالي أربعين عاماً وجهاً ضخماً بارز عظمي الوجنتين. وكانت الضفة اليمنى رحراحاً، والخَلَنْج يبدو ليلكياً بين أشجار البتولا الرقط. وبعد فترة هبّت تحت الجسر برودة كامدة، وكان فوقه وقع ثقيل لحوافر ودواليب، وحين خرج الزورق من جديد بهرت الشمس البصر، برقت على أطراف المجاديف، نشلت* العربة المحمّلة بالأعشاب المجففة التي كانت تعبر في هذه اللحظة الجسر التحتاني والمنحدر الأخضر وفوقه الأعمدة البيض للبيت الكبير المدقوق منذ عصر الاسكندر. ثم هبط حتى النهر نفسه ومن الجانبين حرش* قاتم ودخل الزورق في القصب وهو يرسل حفيفاً خفيفاً.

أما في البيت فلم يكونوا يدرون من هذا كله شيئاً. كانت الحياة تستمر صيفية أليفة لطيفة تكاد الحرب البعيدة المستمرة منذ عام كامل لاتمسّها. كان البيت الخشبي القديم الرمادي الضارب الى الخضرة المتصل بالجناح عبر رواقٍ يتطلع بمرح وهدوء وبالعينين الملوّنتين لشرفتيه الزجاجيتين الى طرف الحديقة، الى المنعرجات البرتقالية لدروب الحديقة الملتفة حول اللطخ السوداء التربة لجنينات

الزهور، وفي غرفة الضيوف حيث ينتصب الأثاث الأبيض وترقد على غطاء الطاولة الموشّى بالورود مجلّدات مرمرية من مجلاّت قديمة، كانت الأرضية الخشبية الصفراء تنسال من مرآة مائلة ذات إطار بيضوي، وكانت الصور الداكرية على الجدران تستمع الى البيانو الأبيض ينبض بالحياة ويرن. في المساء كان عامل البوفيه الطويل الأزرق في قفازيه الخيطيين يحمل الى الشرفة مصباحاً تحت ظلّة حريرية، وكان غانين يعود الى البيت ليشرب الشاي ويزدرد الندف الباردة من اللبن الرائب على هذه الشرفة المشرقة ذات السجّادة المقصبّة على أرضها وشجيرات الغار السود على امتداد الدرجات الحجرية المؤدية الى الحديقة.

بات الآن يلتقي ماشينكا يومياً على ذلك الجانب من النهر حيث كانت ترتفع فوق تلّة خضراء عزبة بيضاء خالية، وحيث كانت أيضاً حديقة أخرى أوسع ومُهْملة أكثر من حديقةٍ في إكارة(*).

أمام هذه الدار الغريبة وعلى بسطة عالية فوق النهر كانت تنتصب تحت أشجار الزيزفون مقاعد وطاولة حديدية مدوّرة ذات ثقب في وسطها لصرف ماء المطر. ومن هناك كان يُرى بعيداً في الأسفل الجسر عبر عطفة مغطاة بأعشاب مائية والطريق المرصوف الصاعد الى فوسكريسنك. هذه البسطة كانت مكانهما المفضل.

ذات مرّة حين التقيا هناك ذات مساء مشمس بعد وابل عاصف من المطر بانت على طاولة الجنينة كتابة عربيدة. أحد أبالسة القرية ربط بين اسميهما بفعل قصير فظّ (وأخطأ، الى هذا، لجهله، في كتابته بشكل صحيح). كانت الكتابة بقلم الكوبيا وقد ماعت قليلاً بفعل المطر. وهنا أيضاً التصقت على الطاولة أغصان صغيرة ووريقات ودويدات جيرية من غائط العصافير.

وبما أن الطاولة كانت تخصّهما– كانت مقدّسة كرّستها لقاءاتهما– فقذ أخذا يمحوان بهدوء وصمت شطحة القلم الليلكية الرطبة بحزمات العشب. وحين

(*) هي الأرض المستأجرة بطريق المزارعة.

استعادت الطاولة كلها لونها الليلكي على نحو مضحك وصارت أنامل ماشينكا وكأنها فرغت للتوّ من جمع حبّات آس أسود استدار غانين وصرّح لماشينكا وهو يرنو باهتمام وبعينين مضيّقتين الى شيء أخضر مشوب بالصفرة، منساب، حار هو في الأوقات العادية ورق زيزفون، صرّح لها بأنه يحبها منذ فترة طويلة.

تبادلا في هذه الأيام الأولى من حبّهما من القبل ماجعل شفتي ماشينكا تنتفخان وتظهر على رقبتها، وهي الساخنة دوماً تحت عقدة الضفيرة، ذيول ناعمة. كانت مرحة الى حدّ مدهش، ضحوكاً أكثر مما هي ساخرة. كانت تحب الأغاني الخفيفة والأمثال الشعبية على اختلافها والكلمات الطريفة والأشعار. كانت الأغنية تحلُّ يومين أو ثلاثة عندها ثم تُنْسى لتوافيها أخرى جديدة. وهكذا كانت أثناء أولى لقاءاتهما لاتني تعيد بصوت ألثغ منفعل: «ربطوا فانيا من يديه ورجليه، تركوا فانيا يتلوّى طويلاً في السجن» - وتطلق ضحكة صدرية برمةً: «لطيفة، آ!». في هذا الوقت كانت تنضج في الأخاديد آخر علّيقة مائية حلوة؛ كانت تحبّها على نحو غير مألوف، وكانت الى هذا تمصّ على الدوام شيئاً ما - ساقاً صغيرة، وريقة، قنداً. كانت بكل بساطة تحمل قنود لندرينوف في جيبها على شكل قطع متلازقة التصق بها أوبارٌ ونثار. وكانت عطورها غير ثمينة، لذيذة، تحمل اسم «تاغور». هذه الرائحة المختلطة بنضارة الحديقة الخريفية كان غانين يجهد الآن لالتقاطها من جديد، لكنْ، كما هو معروف، الذاكرة تستعيد كلّ شيء ماعدا الروائح، وبالمقابل لاشيء يستعيد الماضي كاملاً إلاّ الرائحة المرتبطة به إذّاك.

وانسلخ غانين لحظة عن ذكرياته وفكّر كيف استطاع أن يعيش كل هذه السنين دون التفكير في ماشينكا - ولحق بها ثانيةً على الفور: كانت تعدو في درب ضيّق مخشخش ومعتم والعقدة السوداء تلوح وكأنها «تراورنيتسا»(*) - وتوقفت ماشينكا بغتة وتشبثت بكتفه ورفعت قدمها وأخذت تحك حذاءها الملوّث بجورب القدم الأخرى ثم الى أعلى، تحت ثنايا التنّورة الزرقاء.

(*) فراشة كبيرة ذات جناحين كبيرين، أسودين من الأسفل ومطوقين بخطّ أبيض.

غفا غانين وهو مستلق في ملابسه في السرير غير المفتوح؛ طفت ذكرياته واستحالت الى حلم. كان هذا الحلم غير عادي، ومن أندر مايكون، وكان بوسعه أن يعرف بما يدور لو لم يوقظه عند الفجر دويّ غريب كأنه قصف رعد. نهض قليلاً وأنصت. تبين أن الرعد أنين غير مفهوم وخشخشة خلف الباب: كان أحدهم يحتكّ بالباب في تثاقل: هبط مقبض الباب الذي لايكاد يلمع في ضباب هواء السحر بغتة ثم نطّ من جديد، لكن الباب ظلّ مغلقاً مع أنه لم يكن موصداً بالمفتاح. تحرّك غانين بصمت، وهو يستمتع قبل الأوان بلذة المغامرة، زاحفاً من سريره وكوّر قبضة يده اليسرى تحسّباً وشدّ الباب بيمناه بقوّة.

هوى شخص بملء قوته، وكأنه دمية هائلة ناعمة، بوجهه على كتفه. كاد غانين من وقع المفاجأة أن يلكمه، لكنه شعر على الفور أن الشخص تهاوى عليه فقط لأن ليس في مقدوره الوقوف. نحّاه عنه حتى الجدار وتلمّس الضوء.

كان العجوز بودتياغين يتنصب أمامه حافياً في قميص ليلي طويل مفتوح على صدر شائب وقد استند برأسه الى الجدار وراح يتخطّف الهواء بفم مفغور. كانت عيناه اللتان دون نظّارة، المكشوفتان، الكفيفتان لاترفّان، وكان وجهه بلون الطين الجاف وبطنه الكبير يروح ويجيء تحت شريط قميصه المشدود.

أدرك غانين على الفور أن العجوز دهمته نوبة قلبية من جديد. سنده فتحرّك بودتياغين ناقلاً في تثاقل وصعوبة قدميه الزرقاوين حتى بلغ الأريكة فتهاوى عليها وردّ الى الخلف وجهه الرمادي الذي تصبّب بالعرق فجأة.

دسّ غانين في الإبريق المنشفة وضغط ثناياها الرطبة الثقيلة على صدر العجوز العاري. تهيأ له أنه يمكن أن تتفجّر الآن في هذا الجسم الكبير المتوتر كل العظام في شخشخة حادة.

وفجأة تنهّد بودتياغين وزفر في صفير. لم تكن هذه مجرّد تنهيدة بل متعة عجيبة دبّت الحياة إثرها على الفور في ملامحه. ابتسم غانين مشجّعاً وهو ماينفك يضغط بالمنشفة المبللة على جسمه ويمسح صدره وجانبيه.

– أف. . . . . ـضل – قال العجوز متنهداً.

– اجلس بهدوء تام – قال غانين – الآن ينتهي كل شيء.

كان بودتياغين يتنفّس ويجمجم وهو يحرّك أصابع قدميه الحافيتين الضخمة الملتوية. غطاه غانين باللحاف وأعطاه ماء ليشرب وفتح النافذة أكثر.

– لم يكن بوسعي . . . أن أتنفس – قال بودتياغين بجهد – لم أستطع الدخول عليك . . . أصابني الوهن لدرجة . . . وحيداً لم أرد أن أموت . . .

– اجلس بهدوء ياانطون سيرغييفتش. عمّا قريب يطلع النهار ونستدعي الدكتور.

مسح بودتياغين جبينه ببطء وتنفّس بانتظام أكبر.

– مرّت – قال – مرّت مؤقتاً. كل مافيّ من قطرات استُنفد، ولهذا كانت حالتي بهذه الصعوبة.

– سنشتري لك قطرات أيضاً. هل تريد أن تنتقل الى سريري؟

– لا . . . سأجلس قليلاً ثم أذهب الى غرفتي. مرّت وغداً صباحاً. . .

– نؤجلها حتى الجمعة ـ قال غانين ـ التأشيرة لن تهرب.

لحس بودتياغين بلسانه الغليظ المتبثّر شفتيه المتيبستين:

– ينتظرونني في باريس من فترة طويلة ياليفوشكا. وابنة أخي ليس عندها نقود لكي ترسل لي أجرة الطريق. آه . . .

جلس غانين على حافة النافذة (وبرقت في ذهنه فكرة خاطفة: «جلست مثل هذه الجلسة من فترة قريبة، لكن أين؟». وتذكّر فجأة: العمق الملوّن للظلّة والطاولة البيضاء القلاّبية والثقب على الجورب).

– اطفىء الضوء من فضلك ياعزيزي، – طلب إليه بودتياغين. – هكذا موجع للعينين.

بدا كل شيء في نصف العتمة جدّ غريب: ضجّة القطارات الأولى وهذا الظلّ الكبير الشائب في الأريكة وبريق الماء المسفوح على أرض الغرفة. وكان هذا كله أشد إلغازاً وغموضاً من ذلك الواقع الخالد الذي كان غانين يعيشه.

﴿ ٩ ﴾

في الصباح كان كولين يغلي الشاي لغورنوتسفيتوف. في يوم الخميس هذا كان على غورنوتسفيتوف أن يذهب باكراً خارج المدينة ليلتقي راقصة الباليه التي كانت تستخدم الفرقة، وعلى هذا كان كلّ من في البيت نياماً حين خرج كولين في ردائه الياباني القذر على نحو غير طبيعي وفي حذائه البالي وقدميه الحافيتين يحبو في تثاقل الى المطبخ طلباً للمشروب. كان وجهه المدوّر غير الذكيّ، الروسيّ جداً بأنفه الأخنس وعينيه الزرقاوين الساجيتين (كان هو نفسه يظن أنه يشبه «نصف بييرو»، «نصف غفروش» الفرليني) متغضناً ويلمع، وكان شعره القصير غير المسرّح جانباً يسقط على عرض الجبين وكانت أشرطة الحذاء الفالتة تنقر على الأرض نقر المطر الخفيف. كان ينفخ شفتيه على طريقة النساء وهو يتدبّر أمر ابريق الشاي ثم أخذ يهرّ بشيء ما بصوت هادىء وتركيز. كان غورنوتسفيتوف على وشك الانتهاء من ارتداء ملابسه: كان يعقد ربطة عنقه الرقطاء أمام المرآة وهو ممتعض من الفسفوسة التي قطعها قبل حين لدى الحلاقة والتي كانت تنزف الآن دماً أصفر من خلال طبقة المسحوق الكثيفة. كان وجهه كامداً ذا ملامح جدّ صحيحة وكانت رموشه الطويلة المعقوفة تضفي على عينيه العسليتين تعبيراً واضحاً بريئاً، وشعره الأسود القصير متجعداً على نحو خفيف، كان على طريقة الحوذيين يحلق رقبته من الخلف ويرخي فوديه يلتويان على طول أذنيه خطّين أسودين. كان كصديقه ذا قامة غير طويلة، جدّ نحيل، ذا عضلات ساقين ناميتين على نحو رائع، لكنه ضامر الصدر والكتفين.

كانا قد تصادقا من فترة غير بعيدة نسبياً، وكان يرقصان في ملهى روسي في مكان ما من بلاد البلقان ومنذ شهرين قدما الى برلين بحثاً عن حظهما في المسرح. كانت مسحة خاصة، تكلّف خفي يبعدهما قليلاً عن النزلاء الآخرين، لكن إذا قلنا الصدق لايجوز لنا أن نعرّض بالسعادة الوديعة لهذا الزوج البريء.

فتح كولين، الذي بقي بعد خروج صديقه وحده في الغرفة غير المرتبة، عدّة تسوية الأظافر وأخذ يقصّ رؤوسها وهو يدندن مترنّماً بصوت خفيض. لم يكن يمتاز بنظافة فائقة لكنه، بالمقابل، كان يحافظ على أظافره في مستوى مرموق من الكياسة.

كانت تنبعث في الغرفة رائحة ثقيلة من العرَق، وفي ماء الصابون كانت تسبح خصلة صغيرة من الشعر المقلوع من مشط. وعلى الجدران كانت صورُ باليه ترفع ساقها؛ على الطاولة كانت مروحة كبيرة مفتوحة والى جانبها ياقة منشّاة قذرة.

غسل كولين، بعد أن استمتع بالنظر الى البريق القرمزي لأظافره المنظّفة، يديه بعناية ومسح وجهه ورقبته بماء تواليت عطريّ حتى حدود الغثيان، وبعد أن خلع المبذل مشى عارياً على أطراف قدميه، وقفز موقّعاً زغردةً سريعة برجليه وارتدى ملابسه برشاقة وطلى عينيه، وبعد أن بكّل كل أزرار معطفه الرمادي الذي يغطّي جسمه كله مضى يتفسّح وهو يرفع وينزل طرف عصاه المغندرة في حركة منتظمة.

لحق عند الباب الأمامي، وهو عائد الى البيت للغداء، بغانين الذي اشترى للتو دواء لبودتياغين من الصيدلية. كان العجوز يشعر أنه في وضع جيد، وقد كتب بعض الشيء وتمشّى في الغرفة، لكن كلارا قرّرت بعد أن تبادلت وغانين الرأي ألا تدعه يخرج اليوم من البيت.

ضغط كولين الذي أدرك غانين من الخلف على ذراع هذا الأخير فوق المرفق. التفت غانين :

- آ، كولين. . . هل تفسّحت جيداً؟

- أليك غادر اليوم ، - قال كولين وهو يصعد الدرج الى جانب غانين. - أنا في غاية القلق، لاأدري إن كان سيحصل على عقد. . .

- تمام، تمام ، - قال غانين الذي لم يكن يعرف أكيداً عمّا يمكن أن يتحدث معه.

ابتسم كولين :

- وألفيروف علق البارحة في المصعد. من جديد المصعد الآن لايعمل. .

مرّ بطرف عصاه على الدرابزين ونظر الى غانين بابتسامة حييّة :

- يمكنني أن أجلس عندك قليلاً؟ لاأدري لماذا أشعر بضجر كبير اليوم. . .

«إيه ياأخ لاتفكّر في التودّد إلي بسبب ضجرك» - كشّر غانين في سرّه وهو يفتح باب النزل وأجاب بصوت مسموع :

- أنا مشغول الآن مع الأسف. مرّة أخرى.

- شيء مؤسف ، - ردّ كولين بصوت ممطوط وهو يدخل وراء غانين ويغلق الباب خلفه. لكن الباب استعصى، فقد حشر أحدهم من الخلف يداً سمراء كبيرة، وهدر من هناك صوت برليني غليظ :

- لحظةً ياسادة.

التفت غانين وكولين. اجتاز عتبة الباب ساعي بريد بدين ذو شاربين.

- هنا يعيش الهر ألفيروف؟

– أول باب الى اليسار، – قال غانين.

– شكراً، – هدر ساعي البريد بصوت منغّم وطرق باب الغرفة المشار إليها. كانت هذه برقية.

– ماهذا؟ ماهذا؟ ماهذا؟، – تمتم ألفيروف بتشنج وهو يفتحها بأصابع خرقاء. ولشدة اضطرابه لم يستطع أن يقرأ على الفور الشريط الملصق بكلماته الشاحبة غير المستوية: «أصل السبت الثامنة صباحاً». وفجأة استوعب ألفيروف، تنهد ورسم إشارة الصليب.

– حمداً لك يارب... ستصل...

جلس على السرير وهو يبتسم ابتسامة عريضة ويفرك فخذيه العظميين وأخذ يتأرجح الى الوراء والأمام. كانت عيناه الزرقاوان المائيتان تغمزان بسرعة، وكانت لحيته التي بلون الزبل تلمع مُذهّبة في مجرى الشمس المائل.

– زيرغُوت، – غمغم ألفيروف ـ بعد غدٍ السبتُ. زيرغوت. الجزمة بهذا الشكل!... ستستغرب ماشينكا. لكن لابأسٍ، لابدّأن نتدبر الأمر على نحو أو آخر. سنستأجر شقة، وشقة رخيصة. هي التي ستقرر وقتها، والى حينه سنعيش هنا. نعمة: هناك باب بين الغرفتين.

تريث قليلاً ثم خرج إلى الممر وطرق باب الغرفة المجاورة.

فكر غانين في سره: «ما بالهم لا يدعونني أرتاح اليوم؟».

– اسمع يا غليب لفوفيتش، – بدأ الفيروف كلامه دون مواربة، وهو يقلب الغرفة بنظرة دائرية، – متى تفكر في المغادرة؟

تطلع غانين إليه في توتر:

–اسمي ليف. حاول أن تتذكر.

-أولنْ تغادر السبت؟- سأل ألفيروف وتصور في ذهنه: «السرير يجب أن يكون على نحو آخر. والخزانة يجب إزاحتها قليلاً عن باب المرور. . .»

- بلى، سأغادر، - أجاب غانين، ومرة أخرى شعر، كما في تلك المرة على الغداء، بحرج بالغ.

- إيه، ممتاز، ممتاز، - واصل ألفيروف في هياج. -اعذرني على الأزعاج يا غليب لفوفيتش.

وبعد أن ألقى على الغرفة للمرة الأخيرة نظرة سريعة فاحصة غادرها في جلبة.

- أحمق. . .، - جمجم غانين. - إلى جهنم! بم كنت أستمتع بالتفكير فيه للتو. . آه، نعم. . . الليل، المطر، الأعمدة البيض.

- ليديا نيقولا يفنا! ليديا نيقولا يفنا! - كان صوت ألفيروف الدهني يرتفع منادياً في الممر.

«لا مجال للعيش معه»، -فكر غانين في سره في حنق. «لن أتغدى اليوم هنا. كفى».

كان الأسفلت في الشارع يموج ببريق ليلكي وكانت الشمس تتعثر بين عجلات السيارات. وإلى جانب الحانة كان هناك مرآب؛ وكانت تقويرة بابه تنفرج عن عتمة ومن هناك فاحت رائحة كربيد ناعمة. وهذه الرائحة العارضة مكنت غانين من التذكر بحيوية أكبر شهر آب الروسي، الماطر ذاك، وذاك التيار من السعادة الذي ما فتئت ظلال حياته البرلينية تقطعه طوال الصباح بهذا الإلحاف واللجاجة.

خرج من البيت المضيء إلى الغسق الأسود الخرّار، أشعل ضوءاً ناعماً في مصباح الدراجة الصغير. والآن حين استنشق مصادفة رائحة الكربيد تداعت الذكريات كلها دفعة واحدة: العشب المبلل المهسهس على بطة الساق المتحركة

وعلى برامق العجلات، ودائرة الضوء الحليبي الذي ينغرز في الظلمة ويذيبها، تلك الظلمة التي كانت تبرز منها بركة متغضنه تارة، وحجر براق تارة أخرى، وخشبات الجسر المغطاة بالزبل تارة ثالثة، وأخيراً باب السياج الذي كان يشق طريقة وسطه ملامساً بكتفه أوراق الأكاسيا الناعمة، البليلة.

وإذاك كانت تبرز في الظلمة الهامرة الأعمدةُ ذات الدوران الهادىء، المغسولةُ بنفس ضوء مصباح الدراجة، الأبيض الناعم، وهناك على درج مدخل العزبة الغريبة المخشبة المسقوف، ذي الأعمدة الستة، كانت تتلقفه برودة عطرة ورائحة مختلطة من عطور وقماش مبلل، -وهذه القبلة المطرية، هذه القبلة الخريفية كانت طويلة وكانت عميقة بحيث كانت تطفو في العينين فيما بعد بقع كبيرة مشرقة مرتعشة، وكان صوت المطر الكثير الأغصان الكثير الأوراق ذو الحفيف يبدو أقوى. فتح بأصابع بليلة باب المصباح الزجاجي وأطفأ الضوء. كان الهواء يهب من الظلمة في ثقل ورطوبة متزايدين. كانت ماشينكا التي جلست جانبه على الدربزون المقشر تمسح صدغيه براحتها الباردة، وكان في العتمة يتبين الزاوية المضطربة لعقدتها المبللة بالمطر وبريق عينيها المبتسم.

القوة المطرية في أشجار الزيزفون أمام مدخل الدرج وفي العتمة السوداء المتضفرة كانت تنطلق في اندفاعة واسعة وكانت الجذوع الممسوكة بمشابك حديدية لدعم قوتها الهرمة ترسل صريراً. وعلى ضوضاء هذا الليل الخريفي فك بلوزتها وأخذ يقبل ترقوتها الساخنة؛ كانت صامتة، -فقط عيناها كانتا تبرقان قليلاً، وكان الجلد على صدرها المكشوف يبرد من لمسات شفتيه والهواء الليلي الرطب. كانا لا يتكلمان إلا قليلاً، فالظلمة أكثف من أن تسمح بالكلام. وحين أشعل أخيراً عود ثقاب لينظر إلى الساعة زوت ماشينكا عينيها، أزاحت عن خدها الخصلة البليلة. كان يضمها بيد، ويحرك الدراجة بالأخرى دافعاً بها من السرج، -كانا يسيران بهدوء مبتعدين في الظلمة المتصببة رذاذاً، ويهبطان في الممر الضيق

باتجاه الجسر ، وهناك ودع أحدهما الآخر- طويلاً وبكآبة ومرارة كأنهما أمام فراق طويل .

وفي تلك الليلة السوداء العاصفة حين التقى بها للمرة الأخيرة عشية سفره إلى بطرسبرج قبيل بداية العام الدراسي ، على هذا المدخل ذي الأعمدة حدث شيء ما مرعب وغير متوقع ، رمز ربما لكل التطاولات التالية . في هذه الليلة كان المطر يهطل بصخب غير عادي وكان لقاؤهما لطيفاً بشكل غير عادي . وفجأة صرخت ماشينكا ، وقفزت عن الدرابزون ، ورأى غانين في ضوء عود الثقاب أن درفة إحدى النوافذ المطلة على المدخل فُتحت وأن وجهاً بشرياً يلتصق بالزجاج الأسود من الداخل مُفلْطِحاً أنفاً أبيض . تحرك الوجه ، انزلق متراجعاً ، لكنهما تمكنا كلاهما من التعرف على الخصل الشقر والفم الفاغر لابن الحارس ، وهو انسان ماجن وزير نساء ابن عشرين عاماً كانا يصادفانه دائماً في ممرات الحديقة . انقض غانين بقفزة واحدة مسعورة نحو النافذة ، وخرق البلور المشقشق بظهره واندفع في العتمة الجليدية إلى الداخل واصطدم رأسه في اندفاعته تلك بصدرٍ صلدٍ سرعان ما تأوه من الصدمة . وفي اللحظة التالية اشتبكا ، انقلبا على الأرضية الخشبية المطقطقة مطوحين في العتمة بالأثاث المغلف ، الميت ، وأخذ غانين بعد أن حرر يده اليمنى يسدّد بقبضة حديدية الضربات للوجه المبلل الذي بات تحته فجأة . وحين ارتخى الجسم القوي المضغوط على الأرض فجأة وأخذ يئن ، وقتها نهض غانين . وتوجه إلى النافذة وهو يتنفس بجهد ويخبط في العتمة في زوايا ناعمة وانسل مرة ثانية إلى المدخل ، بحث عن ماشينكا المذعورة المنتحبة ، وإذاك لاحظ أن شيئاً ما دافئاً ، بلون الحديد يسيل من فمه وأن يديه مجرحتان بشظايا الزجاج . وعند الصباح غادر إلى بطرسبرج- وفي الطريق إلى المحطة رأى من نافذة العربة الخابطة بصوت مكتوم ولين ماشينكا السائرة على طرف الطريق مع رفيقاتها . لكن سرعان ما غطاها الحائط المُنجّد بالجلد ، وبما أنه لم يكن وحده في العربة لم يجسر أن يلقي نظرة من خلال الكوة الخلفية البيضاوية .

لقد مكنه القدر في هذا اليوم الأخير من آب أن يذوق مسبقاً طعم الفراق القادم مع ماشينكا، الفراق مع روسيا.

كانت هذه تجربة اختبارية، تذوقاً مسبقاً خفياً؛ كانت شجيرات الغبيراء اللامعة تغيب بحزن متميز الواحدة تلو الأخرى في العكر الرمادي. وبدا غير معقول أن سيرى مرة أخرى في الربيع هذه الحقول، هذا الجلمود فوق المرتفع المكشوف وأعمدة الهاتف الحالمة هذه.

في بيته في بطرسبرج بدا له كل شيء نظيفاً ومشرقاً وإيجابياً على نحو جديد تماماً كما يحصل دائماً لدى العودة من القرية. بدأت المدرسة -كان في الصف السابع وكان يدرس دون اهتمام. سقط أول ثلج وتغطت الأسوار الحديدية وظهورُ الأحصنة المنكسة الرأس والحطبُ في المواعين بطبقة بيضاء منتفخة.

ولم تنتقل ماشينكا إلى بطرسبرج إلا في تشرين الثاني. تقابلا تحت ذلك القوس الذي قضت فيه ليزا نحبها كما في أوبرا تشايكوفسكي. كانت قطعات كبيرة ناعمة من الثلج تنهمر شاقولياً في جو رمادي كأنه زجاج أربد. وبدت ماشينكا في لقاء بطرسبرج الأول هذا غريبة قليلاً، ربما لأنها كانت تضع قبعة ومعطف فرو. ومن هذا اليوم بدأت مرحلة جديدة- ثلجية- من حبهما. كان من الصعب عليهما أن يلتقيا، وكان التسكع طويلاً في الصقيع أمراً معذباً وأليماً، أما البحث عن خلوة دافئة في المتاحف وفي دور السينما فكان الآلم والأرهق- وبالتالي لم يكن من قبيل الصدفة، أن كانا كلاهما يتذكران في الرسائل المتواترة الرقيقة النفاذة التي كانا يتكاتبانها أيام الفراغ (كان يسكن على الضفة الانكليزية، وكانت هي على ضفة كارافانايا) دروب الحديقة ورائحة الأوراق المتساقطة وكأنها شيء عزيز بشكل غير معقول، شيء يستحيل استرجاعه: لعلهما كانا يهيجان حبهما فقط، أو لعلهما كانا يدركان فعلاً أن سعادتهما الحقيقية قد أفلت. وكانا في المساء يتهاتفان -ليعرفا إن كانت الرسالة وصلت وأين ومتى يلتقيان: كان نطقها المضحك أشد روعة على

الهاتف، كانت تروي أبياتاً لثغاً وتضحك بدفء وتضم السماعة إلى صدرها وكان يتهيأ له أنه يسمع دقات قلبها.

وعلى هذا المنوال كانا يتحدثان ساعات .

كانت تخرج ذلك الشتاء في معطف فرو رمادي يزيد من سمنها قليلاً، وفي رانٍ من جلد الشموة على خفٍّ منزلي رقيق. لم يرها أبداً أصيبت بزكام أو حتى ببردٍ. الصقيع، العاصفة الثلجية كانا ينعشانها وحسب، وكان في الزوابع الجليدية يكشف في الزقاق المعتم عن كتفيها، كانت كرات الثلج تدغدغها، وكانت تبتسم من خلال رموشها المبللة، تضم رأسه إليها، وكانت كرة الثلج الهشة تسقط من قبعته المصنوعة من الفرو الاستراخاني على صدرها العاري.

هذه اللقاءات في العراء وفي الصقيع كانت تعذبه أكثر مما تعذبها. كان يشعر أن حبه يتضاءل، يمحي بفعل هذه اللقاءات الناقصة. إن أي حب يتطلب انفراداً، تغطية، مأوى، ولم يكن عندهما هذا المأوى. كانت أسرتاهما لا تعرف الواحدة الأخرى؛ وهذا السر الذي كان على هذه الدرجة الكبيرة من الروعة بات الآن يزعجهما. وأخذ يتبدى له أن كل شيء سيسوى فيما لو صارت عشيقته حتى ولو كان ذلك في غرف نزل مفروشة -وهذه الفكرة كانت تسكنه كأنما بمعزل عن الرغبة ذاتها التي أخذت تهن تحت وطأة تباريح اللمسات الشحيحة.

وهكذا هاما على وجهيهما طوال الشتاء وهما يستعيدان ذكرى القرية ويحلمان بالصيف القادم، يتناقران أحياناً ويتلظيان غيرة ويشد أحدهما على يد الآخر تحت الملحفة الوبرة الصلعاء لمزلجة الحوذي الخفيفة- وفي مطلع العام الجديد تماماً نقلت ماشينكا إلى موسكو.

وعجباً: كانت هذه الغرقة فُرْجة لغانين .

كان يعرف أنها ستعود في الصيف إلى منطقة الفيلا في ضواحي بطرسبرج، كان في أول الأمر يفكر كثيراً فيها، يتخيل الصيف الجديد ، اللقاءات الجديدة

ويرسل إليها نفس الرسائل النفاذة، ثم أخذت رسائله تقل، وحين حضر بشخصه إلى الفيلا في الأيام الأولى من أيار كف نهائياً عن مراسلتها. ففي هذه الأيام تمكن من إقامة علاقة بسيدة أنيقة، لطيفة، شقراء كان زوجها يحارب في غاليسيا، ومن قطْع هذه العلاقة.

وعادت ماشينكا بعد حين.

خفق صوتها ضعيفاً وبعيداً، في الهاتف كان يرتج عجيج كما في صدفة بحرية، وأحياناً كان صوت أبعد دخيل يقاطع، يجرب مع أحدهم حديثاً في البعد الرابع: كان جهاز هاتف الفيلا قديماً ذا مسكة دوارة- وكان بينه وبين ماشينكا نحو خمسين فرسخاً من الضباب الدانّ.

-سآتي، - كان يصرخ في السماعة. - قلت لك سآتي. بالدرّاجة هذا يأخذ ساعتين.

- . . . لم يُرد أن يعود إلى فوسكر يسنك ثانية؛ هل تسمعني؟ لم يرد بابا بأي شكل ومهما يكن أن يستأجر فيلا في فوسكر يسنك مرة أخرى. من عندك حتى هنا خمسون . . .

- لاتنس جلب الأحذية الرجالية، - قال الصوت الدخيل بنعومة ولا مبالاة.

تراءت ماشينكا من جديد في غمرة هذا الطنين وكأنها في مرصد مقلوب. وحين اختفت تماماً استند غانين إلى الحائط وأحس أن أذنيه تحمران.

غادر نحو الثالثة ظهراً في قميص مكشوف وبنطال رياضي وفي حذاء مطاطي ودون جوارب. كان الهواء يدفعه من ظهره وكان يمضي بسرعة مختاراً الأماكن الملساء بين الحجارة الحادة في الطريق ويتذكر كيف مر بمحاذاة ماشينكا الصيف الفائت ولمّا يكن قد تعرف إليها.

في الفرسخ الخامس عشر انفجر الإطار الخلفي ومكث فترة طويلة يصلحه وهو جالس على حافة القناة. ومن الحقول من جانبي الطريق كانت تطن القنابر،

وفي سحابة من الغبار كانت تدرج سيارة رمادية فيها ضابطان يضعان نظارات بومية. وبعد أن نفخ الإطار الذي أصلحه بقوة أكبر تابع السير وهو يشعر أنه لم يحسب الحساب المطلوب وأنه تأخر ساعة حتى الآن. انعطف عن الطريق ومضى يقطع الغابة في درب دلّه عليه فلاح عابر. ثم انعطف ثانية وسار طويلاً يتلوى يميناً وشمالاً قبل أن يجد نفسه على الطريق الصحيح. استراح وأكل في قرية صغيرة وحين لم يبق أمامه سوى اثني عشر فرسخاً اجتاز حجراً حاداً فصفر الإطار إياه من جديد وحط.

كانت الدنيا قد أظلمت قليلاً حين وصل بلدة الاصطياف حيث كانت تسكن ماشينكا. كانت تنتظره عند بوابة الحديقة كما اتفقا، لكنها كانت فقدت الأمل في وصوله ذلك أنها كانت تنتظر من الساعة السادسة. تراجعت من الاضطراب حين رأته وكادت تسقط. كانت ترتدي فستاناً أبيض شفافاً لم يكن غانين عرفه من قبل. كانت العقدة قد اختفت ولذا بدا رأسها الرائع اصغر. وفي شعرها الملموم كانت تلوح نباتات تُرُنْجان زرق.

في هذا المساء الغريب، المظلم بحذر في الغسق الزيزفوني لحديقة البلدة الواسعة، وعلى بلاطة مغروزة في الطحلب وفي ساعة واحدة غير طويلة أحبها غانين حباً أحد وأشد مما سبق، وكف عن حبها كأنما إلى الأبد.

تحدثا أول الأمر بهدوء وغبطة- كيف أنهما لم يلتقيا طوال هذه المدة، وكيف أن الحُباحب يشع فوق الفرو وكأنه مُلَوِّحة صغيرة. كانت عيناها اللطيفتان، التتريتان اللطيفتان، تنزلقان عند وجهه، وكان ثوبها الأبيض كأنما يتلألأ في العتمة، - ويا إلهي، رائحتها هذه، الغامضة، الفريدة في العالم. . .

- أنا لك، - قالت له. - افعل بي ماتشاء.

انحنى فوقها بصمت وبقلب خافق، وأخذت يداه تتيهان فوق ساقيها الناعمتين المائلتين إلى البرودة. لكن كانت في الحديقة خشخشات غريبة، وكأنما كان أحدهم يدنو أكثر فأكثر من خلف الشجيرات؛ كانت الساقان ثابتتين وباردتين على البلاطة؛ كانت ماشينكا تتمدّد باستسلام وفي جمود زائد.

تسمّر ثم ابتسم في ارتباك :

- يبدو لي طول الوقت أن هناك شخصاً ما قادم ، - قال ونهض .

تنهدت ماشينكا ، سوّت ثوبها الذي بدا في بياض غير واضح ونهضت هي أيضاً .

وفيما بعد حين كانا يمضيان في الدرب المرقّط بفعل القمر ، التقطت ماشينكا حُباحباً أخضر شاحباً من فوق العشب . ثبتته على راحتها وهي تحني رأسها ، ثم انفجرت بغتة تضحك وقالت بلهجة مصطنعة فيها شيء من لهجة أهل القرى : «على العموم ، دودة باردة» .

وفي هذا الوقت كان غانين المتعب ، المستاء من نفسه ، والبردان في قميصه الرقيق يقول في نفسه ان كل شيء انتهى وانه كف عن حب ماشينكا ، وحين انطلق بعد دقائق في العتمة القمرية عائداً إلى بيته فوق شريط الطريق الشاحب أدرك أنه لن يأتي إليها بعد الآن .

ومر الصيف : لم تكتب ماشينكا ولم تهتف أما هو فكان مشغولاً بأمور أخرى وعواطف أخرى .

عاد من جديد إلى بطرسبرج في الشتاء ، وفي كانون الأول قدم فحوص التخرج على نحو مُسبق وانتسب إلى كلية ميخاييلوفسك العسكرية ؛ وفي الصيف التالي ، وكانت سنة الثورة ، التقى ماشينكا مرة أخرى .

كان على رصيف محطةوارسو . كان المساء يقترب ، وكان قطار المصايف قد أُحضر للتو . كان يروح ويجيء على الرصيف الموسخ في انتظار الجرس ويفكر ، وهو ينظر إلى عربة الأمتعة اليدوية ذات الدولاب الواحد ، في شيء آخر ، في إطلاق النار بالأمس أمام باحة غوستيني ، وكان إلى هذا حانقاً من فكرة أنه لم يتمكن من الاتصال بالفيلا هاتفياً وأنه سيضطر للانتقال ببطء من المحطة في عربة خيل .

حين قُرع الجرس الثالث اقترب من العربة الوحيدة الزرقاء بين العربات المصفوفة وأخذ يتسلق المدخل- وعلى المدخل كانت تقف ماشينكا وترنو إليه من علٍ. كانت تغيرت خلال عام، ولعلها نحلت قليلاً، وكانت ترتدي معطفاً أزرق بحزام غريباً عليه. حياها غانين بارتباك، أرعدت العربة بمصداتها وأقلعت. وبقيا واقفين عند المدخل. لابد أن ماشينكا لمحته من قبل وانسلت إلى العربة الزرقاء، مع أنها كانت تسافر دائماً في الصفراء. والآن لم تشأ ومعها بطاقة الدرجة الثانية أن تذهب إلى مقصورتها. كان في يدها لوح شوكولا من نوع «بليكن وروبنسون»؛ كسرت على الفور قطعة وقدمتها.

كان غانين يشعر بحزن مرعب وهو ينظر إليها- كان شيء ما وجل، غريب في هيئتها كلها، كانت تبتسم أقل من السابق ولا تنفك تشيح بوجهها. وكانت على جيدها الناعم كدمات بنفسجية وطوق ظليل مناسب لها تماماً. روى لها تُرهة ما، أراها الخدش الذي خلفته الرصاصة على جزمته، تحدث في السياسة. قعقعت العربة وانطلق القطار بين المستنقعات الخثية(*) الداخنة في تيار أصفر من غسق المساء: كان الدخان الخثي الرمادي يتراكم مشكلاً كأنما موجتي ضباب ينطلق بينهما القطار.

نزلت في أول محطة، وظل فترة طويلة ينظر من المدخل إلى قامتها الزرقاء المبتعدة، وبقدر ما كانت تبتعد كان يتبين له بوضوح أكبر أنه لم يكف عن حبها أبداً. لم تلتفت؛ ومن قلب الغسق كانت رائحة بطم الشمال تهفو ثقيلة ووبرة.

حين تحرك القطار دخل المقصورة وكانت مظلمة لأن الجابي لم ير من الضروري إشعال بقايا الشموع في المصابيح في عربة خالية. استلقى على ظهره فوق مرتبة المقعد الطويل المخططة ورأى من فتحة الباب كيف تتصاعد وراء نافذة الممشى أسلاك رفيعة وسط دخان الخث المحترق وذهب المغيب الأسمر. كان

(*) الخث هو فحم نباتي.

من الغـرابة والرهبـة بمكان الانطلاق في هذه العربة الفـارغـة المهـتزة بين تيـارات الدخـان، وراودته أفكار غـريبـة، وكـأنما هذا كله حـدث في وقت مـا -هكذا كـان يستلقي سـانداً قذاله بيـديه في عتمة مقعقعة نافذة، وهكذا بحذاء النوافذ كـان يسبح غسق داخن وسيعاً صاخباً.

وبعد ذلك لم يلتق بماشينكا.

﴿ ١٠ ﴾

اقتربت الجلبة، تدفقت، وغطت غيمة شاحبة النافذة واهتزت الكأس فوق المغسلة. عبر القطار، وامتد الآن في النافذة من جديد قفر القضبان الحديدية المروحي. رقيقة برلين وضبابية في نيسان قبيل المساء.

يوم الخميس هذا وعند الغسق حيث جلبة القطارات أخف ما تكون دخلت كلارا على غانين في حالة اضطراب مخيف لتنقل إليه كلمات لودميلا. «قولي له التالي، - غـمغمت لودميلا حين كـانت صديقتها تغادرها، -قولي له هكذا: إني لستُ من النساء اللواتي يُهْجَرْن. أنا نفسي أعرف كيف أهجُر. قولي له إني لا أطالبه بشيء، لا أريد، لكني اعتبر من الخنزرة أنه لم يرد على رسالتي. أردت أن أفارقه بروح صداقة، واقترح عليه: فرضاً لن يكون هناك حب بعد الآن، لكن فلتبق أبسط علاقات الصداقة، وهو لم يكلف نفسه حتى مجرد الاتصال بالهاتف. أبلغيه يا كلارا أني أتمنى له كل سعادة مع ألمانيته واعرف أنه لن ينساني بتلك السرعة».

- من أين جاءت الألمانية هذه؟ -قطب غانين حين نقلت إليه كلارا هذا كله بصوت سريع خـافت دون أن تنظر إليه. -وعلى العموم لماذا نقحمك في هذه القضية. ممل جداً هذا كله.

- أتعرف يا ليف غيلبوفتش، -صاحت كلارا فجأة وهي تغمره بنظرتها البليلة، -أنت بكل بساطة انسان غير طيب إطلاقاً. . . لودميلا لا ترى فيك إلا كل جيد، تعتبرك انساناً مثالياً، لكن لو عرفتْ من أمرك. . . كان غانين يتطلع إليها بدهشة فيها لطف وطيبة. ارتبكت، ذُعرت وغضّتْ عينيها من جديد.

- أنا أنقل إليك فقط، لأنها هي التي طلبتْ، -قالت كلارا بصوت خفيض.

-أنا بحاجة إلى أن أغادر، -استأنف غانين كلامه بهدوء بعد صمت قصير. - هذه الغرفة، هذه القطارات، طبخات إيريك قرفتها. وإلى هذا فنقودي على وشك النفاد، وعما قريب يتوجب علي العودة إلى الشغل. أفكر في مغادرة برلين نهائياً يوم السبت، والتوجه إلى جنوب الدنيا، إلى مرفأ ما. . .

فكر قليلا وهو يشد قبضته ويرخيها.

-وعلى أي حال، لا أعرف شيئاً. . . هناك ظرف معين. . . ستتعجبين جداً لو تعرفين ما نويت. . . لدي خطة مدهشة لم يُسمع بمثلها من قبل. إذا نجحتْ لن يكون لي أثر في هذه المدينة بعد غد.

«ما أغربه فعلاً»- فكرت كلارا في سرها وقد انتابها هذا الشعور الموجع بالوحدة الذي يتملكنا حين يسترسل شخص ما عزيز علينا في حلم لا مكان لنا فيه.

اتسعت حدقتا غانين السوداوان اللماعتان وأضفت رموشه الكثيفة الناعمة شيئاً ما أزغب، دافئاً على عينيه، ورفعت الابتسامة الهادئة لاستغراقه في التفكير شفته العليا قليلاً فلمعت من تحتها أسنانه المستوية شريطاً أبيض. كان حاجباه الداكنان الكثيفان اللذان يذكران كلارا بقطع الفرو الثمين ينعقدان تارة وينفرجان تارة أخرى، وكانت التجاعيد ناعمة تظهر على جبينه الصافي وتغيب. وحين لاحظ أن كلارا ترمقه، تغامز برموشه ومر بيده على وجهه وفطن إلى ما كان يريد أن يقول لها:

-أجل. أنا سأغادر وينتهي كل شيء. وأنتِ أيضاً، قولي لها بكل بساطة: غانين، كما يقول، سيغادر ويرجوك الاتذكريه بسوء. هذا كل شيء.

﴿ ١١ ﴾

صباح الخميس وزع الراقصان على النزلاء الأربعة الباقين الإشعار التالي: نظراً لأن.

١- السيد غانين يغادرنا.

٢- والسيد بودتياغين يستعد لمغادرتنا.

٣- زوجة السيد ألفيروف ستصل يوم غد.

٤- والمدموازيل كلارا تبلغ السادسة والعشرين من العمر.

٥- ولأن الموقعين أدناه حصلا على عقدٍ في هذه المدينة -نظراً لهذا كله سيقام في الساعة العاشرة من مساء اليوم احتفال في غرفة السادس من نيسان.

- شباب مضياف، -ابتسم بودتياغين ابتسامة ساخرة خفيفة وهو يخرج من البيت بصحبة غانين الذي تولى مرافقته إلى الشرطة. -إلى أين ستغادر ياليفوشكا؟ هل ستبتعد كثيراً؟ أجل.... أنت عصفور طليق. أنا في شبابي كانت تعذبني الرغبة في السفر والتجوال، في التهام أرض الله. وقد كان لي ذلك، كان لي ما كان...

اقشعر جسمه من الهواء الربيعي الرطب فرفع ياقة معطفه الرمادي الداكن النظيف ذي الأزرار العظمية الضخمة؛ كان مايزال يشعر في رجليه بالوهن المنسل إليهما والمتبقي إثر النوبة، لكنه كان يشعر اليوم بقدر من الخفة والمرح تبعثهما فيه

فكرة أنه اليوم سينتهي على الأرجح هذا الانشغال المحموم بجواز السفر وأنه سيتمكن من المغادرة إلى باريس حتى ولو في الغد.

كان البناء القرمزي الضخم لمديرية الشرطة المركزية يطل على أربعة شوارع دفعة واحدة؛ كان مشاداً بأسلوب قوطي مريع لكنه جد رديء، ذا نوافذ باهتة وحوش جد طريف كان من المحظور العبور منه، وشرطي جامد الأعصاب عند الباب الرئيسي. وكان سهم على الجدار يشير إلى دكان مصور عبر الشارع حيث كان بإمكان الواحد الحصول على صورة حقيرة له خلال عشرين دقيقة: نصف دزينة من السحن المتشابهة، كانت واحدة منها تلصق على صفيحة جواز السفر الصفراء وثانية تذهب إلى أرشيف الشرطة، أما الأخرى فكانت، على الأرجح، تتوزع على المجموعات الخاصة بالموظفين.

دخل بودتياغين وغانين ممراً رمادياً واسعاً. كانت تنتصب عند باب قسم الجوازات طاولة صغيرة وكان موظف أشيب بشاربين يوزع بطاقات ذات أرقام، ويلقي بين الحين والحين، كما يفعل معلم المدرسة، نظرات من خلال نظارته على الجمهور القليل المختلف القبائل.

-عليك أن تقف في الصف وتأخذ رقماً، - قال غانين.

- لم أفعل هذا أبداً، - رد الشاعر العجوز في همس. -كنت أعبر مباشرة الباب...

وبعد أن استلم البطاقة بعد عدة دقائق سُرّ وابتهج وازداد شبهاً بخنزير بحري سمين.

وفي الغرفة العارية التي كان يجلس فيها خلف حاجز واطىء وفي موجة الشمس الخانقة موظفون إلى طاولاتهم كان هناك مرة أخرى جمهور بدا وكأنه لم يحضر إلا ليحدج هؤلاء السادة المتجهمين وهم يكتبون.

شق غانين طريقه إلى الأمام ساحباً بودتياغين الذي كان ينخر باستسلام من كمه.

انتقلا بعد نصف ساعة وقد استلما جواز سفر بودتياغين إلى طاولة أخرى- وثانية كان هناك دور وضغط ونفس عفن من أحدهم، وأخيراً أعيدت الصحيفة الصفراء لقاء بضع ماركات وقد ازدانت بدفعة سحرية.

-والآن هيا إلى القنصلية، -تنحنح بودتياغين بفرح حين خرجا من المؤسسة المريعة في مظهرها، إنما المملة على وجه العموم. -الآن انتهى الموضوع. كيف استطعت يا ليف غليبوفتش، يا عزيزي أن تكلمهم بكل هذا الهدوء؟ أنا في المرات السابقة كم كنت أتعذب... هيا بنا نتسلق «الامبريال». ومع هذا يا لها من سعادة. أنا، لو تعرف، تعرّقت.

كان أول من تسلق السلم الحلزوني، نقر براحته من علٍ على الجانب الحديدي للحافلة فتحركت. وعامت إلى القرب منهما البيوت والإعلانات والشمس في الواجهات.

- أحفادنا لن يفهموا بأي شكل من الأشكال هذا الهراء وهذه الترهات المتعلقة بالتأشيرات. -قال بودتياغين وهو يقلب جواز سفره بخشوع. - لن يفهموا بأي شكل أنه كان يمكن أن يكون هذا القدر من الاضطراب والقلق في ختم بسيط كهذا... ما رأيك، -استدرك بودتياغين على حين غرة، - هل سيضع الفرنسيون لي الآن التأشيرة بالتأكيد؟

-طبعاً، سيضعونها، - قال غانين. - فهم أبلغوك أنّ هناك إذْناً.

- من المحتمل أن أسافر غداً، - ضحك بودتياغين ضحكة خفيفة. -فلنسافر معاً يا ليفوشكا. الحياة هناك في باريس ستكون جيدة. لكن انظر، أي سحنة لي.

ألقى غانين عبر يد بودتياغين نظرة على الجواز، وعلى الصورة في الزاوية. كانت الصورة رائعة تماماً: كان وجه منتفخ مبهور يسبح في عكر ضارب إلى الرمادي.

- لكن أنا لدي جوازا سفر بالكامل، -قال غانين مبتسماً. -أحدهما روسي، حقيقي لكنه قديم جداً، والثاني بولوني، مزوّر؛ وبه أعيش.

وضع بودتياغين، وهو يدفع النقود للجابي، ورقته الصفراء على المقعد، جانبه، انتقى من بين قطع النقود أربعين بفينغ، رفع عينيه إلى الجابي:

-غينوخ؟

ثم التفت إلى غانين جانباً.

- ما الذي تقوله ياليف غليبوفتش. مزور؟

- بالضبط. أنا في الحقيقة اسمي ليف، لكن كنيتي ليست غانين إطلاقا.

- كيف يمكن أن يكون هذا يا عزيزي، - حملق بودتياغين عينيه في استغراب ودهشة وأمسك فجأة بالقبعة، - كانت تهب ريح قوية.

- هكذا. كانت هناك أمور، - قال غانين مستغرقاً في التفكير. منذ ثلاث سنوات كتيبة أنصار في بولونيا وما إلى ذلك. فكرت في وقت ما: أتسلل إلى بطرسبرج، أثير انتفاضة... أما الآن فأشعر بشيء من التسلية والراحة مع هذا الجواز.

حول بودتياغين عينيه فجأة وقال بتجهم:

- اليوم يا ليفوشكا رأيت بطرسبرج في المنام. رأيتني أسير في شارع نييفسكي، أعرف أنه نيفسكي مع أنه لاشيء فيه يشبه نييفسكي -البيوت على شكل زوايا مائلة، اسلوبيات مستقبلية شاملة، السماء سوداء مع أني أعرف أن الوقت نهار. والعابرون ينظرون إلي شزرا. ثم يعبر أحدهم الشارع ويهوي على رأسي.

وكثيراً ما أرى هذا. شيء فظيع -آه فظيع -أننا حين تتراءى لنا روسيا في الحلم، لا نرى سحرها الذي نذكره في يقظتنا، بل شيئاً ما مريعاً، فظيعاً. مثل هذه الأحلام لو تدري تحدث حين تتداعى السماء وتؤذن نهاية العالم.

-لا، - قال غانين -أنا لا يظهر لي في الحلم إلا كل ما هو ساحر. الغابة إياها والمنزل إياه. أحياناً فقط يكون هناك شيء من الفراغ وممرات مجهولة في غابة. لكن هذا لا أهمية له. علينا أن ننزل هنا يا أنطون سير غييفتش.

هبط السلّم الحلزوني وساعد بودتياغين في العبور إلى الاسفلت.

- الماء يلمع بشكل رائع، -لاحظ بودتياغين وهو يتنفس بصعوبة ويشير بيده المنشورة الأصابع إلى القناة.

-انتبه، دراجة، -قال غانين. -وهاك القنصلية، هناك، إلى اليمين.

-تقبل شكري الخالص، ياليف غليبوفتش. أنا وحدي ما كان بوسعي أبداً أن انتهي من هذه المماطلات بخصوص جواز السفر. فُرجتْ. الوداع يا ديتشلند.

دخلا مبنى القنصلية وأخذا يرتقيان الدرج.

أخذ بودتياغين اثناء سيره يبحث في جيبه.

- هيا، هيا، -التفت إليه غانين.

لكن العجوز ما انفك يبحث.

﴿ ١٢ ﴾

لم يجتمع على الغداء سوى أربعة نزلاء.

- ما بال جماعتنا تأخروا هكذا؟ -قال ألفيروف بمرح.

- أكيد، لم يُوفَّقوا.

كانت تفوح منه رائحة الانتظار البهيج . ففي اليوم السابق ذهب إلى المحطة واستعلم عن الموعد الدقيق لوصول قطار الشمال : ٨,٠٥ . في الصباح نظف طقمه ، اشترى زوجاً من حواشي كم جديدة وباقة من السوسن . أموره المالية كأنما كانت تتحسن . قبل الغداء كان يجلس في المقهى مع سيد حليق متجهم عرض عليه عملية رابحة بالتأكيد . كان فكره الذي ألف الأعداد مملوءاً الآن بعددٍ واحد كأنما على شكل كسر عشري : ثمانية ، فاصلة ، صفر ، خمسة . كانت هذه تلك النسبة المئوية من السعادة التي منحه إياها القدر حتى الآن . أما غداً . . . قطب وزفر بصوت داوٍ وهو يتصور كيف سيذهب غداً باكراً إلى المحطة وكيف سينتظر على الرصيف وكيف سيطل القطار في اندفاع . . .

اختفى بعد الغداء ؛ تلاه الراقصان المضطربان كالنساء من الاحتفال القادم : خرجا يتأبط أحدهما ذراع الآخر لشراء مأكولات خفيفة .

وحدها كلارا بقيت في البيت : كان رأسها يؤلمها وكانت عظام رجليها الممتلئتين الرقيقة توجعها ؛ وجاء هذا في غير وقته- فاليوم عيدها . «اليوم يصير لي ستة وعشرون عاماً ، - فكرت في سرها- وغدا يغادر غانين . إنه شخص رديء ، يخدع النساء ، مستعد للإجرام . . . يستطيع أن ينظر في عيني مباشرة ، رغم أنه يعرف أني رأيت كيف كان يتهيأ لسرقة النقود . ومع هذا فهو انسان رائع ، وأنا طول النهار أفكر فيه . لكن ليس هناك أي أمل . . . » .

نظرت إلى نفسها في المرآة : كان وجهها أشد شحوبا من المألوف : ظهر طفح خفيف تحت جديلتها الكستنائية الواطئة ؛ وتحت العينين كانت أطياف رمادية مشوبة بالصفرة . كانت قد ملت بشكل لا يطاق فستانها الأسود اللماع الذي كانت ترتديه يومياً ؛ وعلى جوربها الشفاف المائل إلى القتامة وعند الدرزة كان يتراءى الرفء في اسوداد جد ملحوظ ؛ والكعب كان قد اعوج .

حوالي الخامسة عاد بودتياغين وغانين. سمعت كلارا خطواتهما وتطلعت. عبر بودتياغين الشاحب شحوب الموت بصمت في معطفه المكشوف إلى غرفته وهو يمسك بيده الياقة وربطة العنق وأغلق الباب بالمفتاح.

- ما الذي حدث؟ -سألت كلارا في همس.

طقطق غانين بلسانه:

-أضاع جواز السفر، وبعدها حدثت نوبة. هنا، أمام البيت مباشرة. حملته بمشقة كبيرة. المصعد لا يعمل، مصيبة. درنا المدينة كلها.

- أنا ذاهبة إليه، - قالت كلارا، - ينبغي تهدئته وتطمينه.

لم يسمح لها بودتياغين بالدخول فورا.

وحين فتح أخيرا الباب، فغرت فاها وهي ترى وجهه المكدر، المكسوف.

- سمعت؟ -قال في ابتسامة حزينة.. أي أبله عجوز أنا. كان كل شيء جاهزا، -وهاكِ، تفقدته...

-لكن أين تركته يسقط منك يا انطون سيرغييفتش؟...

- بالضبط: تركته يسقط. نزوة شاعرية... مواراة جواز سفر. سحابة في سروال، واضح. بلاهة.

- لعل أحدهم يلتقطه، - مطت كلارا صوتها متعاطفة.

-مستبعد... إنه القدر. والقدر لا مفر منه. لا مجال أمامي للمغادرة. هذا هو المكتوب علي منذ البدء...

جلس بتثاقل.

- أشعر بضيق يا كلارا . . . في الطريق ضاق نفسي حتى أني قلت : جاءت النهاية : آه يا إلهي ، ما العمل الآن . لم يبق لي إلا أن أفطس .

﴿ ١٣ ﴾

أما غانين فقد عاد إلى غرفته وأخذ يرتب امتعته . سحب من تحت السرير شنطتين جلديتين مغبرتين -واحدة بغلاف عليه ترابيع والثانية عارية ، ذات صفرة قاتمة وآثار باهتة لبطاقات ملصقة . وأفرغ كل محتوياتهما على الأرض . ثم أخرج من العتمة المرتجة ذات الصرير للخزانة طقماً أسود وحزمة رقيقة من الملابس الداخلية وزوج جزمات بنية ثقيلة ذات أزرار نحاسية . وسحب من المنضدة الليلية أشياء صغيرة متنوعة كان قد ألقى بها هناك في وقت ما : كُوَيْمات رمادية من محارم أنفية وسخة ، أمواس حلاقة رقيقة عليها آثار صدأ حول الثقوب المحفورة ، جرائد قديمة ، بطاقات عليها مناظر ، وفراشي أسنان صفر كأسنان الحصان ، وفردة جورب حريرية ممزقة فقدت زميلتها .

نزع غانين الجاكيت وجلس القرفصاء وسط هذا السقط من المتاع الحزين المغبر يقلبه ويخمن ويحسب ما ينبغي أخذه وما ينبغي إتلافه .

وضع أول ما وضع الطقم والملابس الداخلية النظيفة ثم المسدس وبنطال خيّال عتيقاً ممحوحاً عند الأُربية .

لاحظ ، فيما هو يفكر في ما سيضعه بعد هذا ، محفظة جيب سوداء كانت سقطت تحت الكرسي حين كان يفرغ الحقيبة . التقط المحفظة من الأرض وهمّ يفتحها وهو يبتسم ويفكر فيما تحتويه ، لكنه دسها في جيب بنطاله الخلفي بعد أن قال لنفسه إن عليه أن يرتب عفشه بأسرع ما يكون ، وراح يلقي في الشنطتين

المفتوحتين، بسرعة وعلى العمياء: كوماً من الورق الأبيض، وكتباً روسية الله أعلم من أين جاءته، وتلك الأشياء الصغيرة، العزيزة عليه لأمرٍ ما والتي ألفتها العيون والأصابع إلى حد كبير والضرورية فقط ليحس الانسان المحكوم عليه دائماً بالارتحال والانتقال أنه في بيته ولو قليلاً وهو يخرج للمرة المائة من حقيبته هذا النثار الانساني الخفيف اللطيف.

رتب امتعته وقفل كلا الشنطتين ووضع الواحدة إلى جانب الأخرى وحشا سلة المهملات بجثث الجرائد، تفحص كل زوايا الغرفة المفرغة ومضى إلى ربة النزل يصفي حساباته.

كانت ليديا نيقولايفنا تقرأ وهي منتصبة القامة تماماً في أريكتها حين دخل. انسل كلبها الصغير في دعة من السرير وتمرغ في هستيريا طفيفة من الإخلاص والوفاء عند قدمي غانين.

اغتمت ليديا نيقولايفنا وقد أدركت أنه الآن مغادر لا محالة. كانت تحب قوام غانين الكبير الهادىء، وبشكل عام كانت قد اعتادت النزلاء جداً وألفتهم، وكان هناك ما يشبه الموت في مغادراتهم التي لا مفر منها.

سدد غانين أجرة الاسبوع الأخير وقبّل اليد البيضاء كورقة ذابلة.

تذكر وهو يعود أدراجه في الممران الراقصين دعواه اليوم إلى أمسية. وقرر ألا يغادر إلى حين: فالغرفة في النزل يمكن استئجارها دائماً حتى لنصف ليلة.

«غداً تصل ماشينكا، - هتف في سره وهو يقلب عينيه المغتبطتين المذعورتين قليلاً في السقف والجدران وأرض الغرفة. - غداً بالتأكيد سآخذها» - فكر بنفس الاختلاج الذهني العميق ونفس التنهيدة لكيانه كله.

سل بحركة عُجلى المحفظة التي كان يحتفظ فيها بخمس رسائل؛ كان قد تلقاها حين كان في القرم. وفي لحظة تذكر الآن شتاء القرم ذاك بالكامل:

ريح الشمال الشرقي، الغبار المرّ على شاطىء يالطا، الموجة المرتطمة على الطوار عبر الحاجز، والبحارة الوقحين المرتبكين، ثم الألمانيين في فقعيْ خوذتين حديدين، ثم الشرائط المرحة الثلاثية الألوان، -أيام الانتظار، فترة الراحة القلقة، -والمومس النحيلة النمشاء ذات الشعر المقصوص والوجه اليوناني المتسكعة على الشاطىء، ريح الشمال الشرقي التي تذرو نوتات الاوركسترا في حديقة المدينة، وأخيراً الحملة، التوقف المتواتر في القرى التترية الصغيرة، حيث تبرق الموسى ليل نهار في دكاكين الحلاقة الصغيرة وكأن شيئاً لم يكن، وينتفخ الخد بالصابون في حين يتدفق الأطفال في الطريق، وفي الغبار دوامات كما قبل ألف سنة، والقلق الليلي الوحشي حين لاتعرف من أين إطلاق النار ومن يركض وهو ينط عبر برك القمر، وبين الظلال السود المائلة للبيوت.

سحب غانين من الرزمة الرسالة الأولى- ورقة سميكة متطاولة عليها رسم في الزاوية اليسرى: شاب يرتدي فراكا لازورديا، يمسك وراء ظهره بباقة زهور شاحبة، يقبل يد سيدة لطيفة مثله ذات خصل على طول خديها وثوب وردي عالي الزنار.

أُرْسلت إليه الرسالة الأولى هذه من بطرسبرج إلى يالطا؛ كانت كُتبت بعد عامين ونيف من ذلك الخريف السعيد.

«ليفا، ها أنا ذا في بولتافا منذ اسبوع كامل، مَلَل فظيع. لا أعرف إن كنت سأراك يوما ما، لكن بودي ألا تنساني مع هذا».

كان الخط صغيرا، مستديرا كأنما يحبو على أصابع قدميه.

«تصور، أسبوعاً كاملاً وأنا أنظر إلى الثلج، الثلج الأبيض البارد. الجو بارد، فظيع، ممل. وعلى حين غرة، كما العصفور تخترق رأسك فكرة أن هناك، بعيداً بعيداً، في مكان ما يعيش الناس حياة أخرى مختلفة تماماً. إنهم لا يذوون مثلي هنا في مجاهل قرية صغيرة مهجورة. . .

لا، الجو هنا ممل وكئيب جداً، اكتب لي يا ليفا شيئا ما. حتى ولو توافه وسخافات».

تذكر غانين كيف استلم هذه الرسالة، كيف مضى في هذا المساء البعيد من كانون الثاني في الدرب الحجري الشديد الانحدار بمحاذاة سياجات الخوازيق الترية المتوجة هنا وهناك بجماجم الخيول، وكيف جلس فوق ساقية تغسل بدفقاتها الرقيقة الحجارة البيض الملس، وأخذ يرنو من خلال الأغصان البالغة الرقة، التي لا عد لها والبيّنة بشكل مدهش، لشجرة تفاح عارية إلى السماء الذائبة ورداً حيث كان يلمع الهلال وكأنه قلامة ظفر شفافة، وإلى جانبه عند القرن السفلي كانت ترتعش قطرة منيرة- أول نجمة.

كتب إليها في تلك الليلة بالذات- عن هذه النجمة، عن شجرات السرو في الحدائق، عن الحمار الذي ينهق وراء البيت في الحوش التتري. كتب بلغة رقيقة، حالمة، استذكر العراجين البليلة على جسر الظلة الزلق حيث التقيا.

في هذه السنوات كانت الرسائل تستغرق وقتا طويلا للوصول: لم يأت الجواب إلا في تموز.

«شكراً جزيلا على الرسالة الطيبة، اللطيفة، «الجنوبية». علام تقول إنك مازلت تذكرني مع هذا؟ ألن تنساني؟ كلا؟ ما أحلى هذا!

الآن عندنا نهار جيد عليل، ما بعد العاصفة الرعدية. اتذكر كيف كانت الحال في فوسكريسنك؟ أولا تود أن تتسكع مرة أخرى في تلك الأماكن الأليفة؟ أنا في حالة فظيعة. ما أحلى لوتتسكع تحت المطر في الحديقة الخريفية. لماذا لم نشعر إذاك بالحزن في الطقس الرديء؟

سأتوقف عن الكتابة بعض الوقت وأذهب أتفسح.

البارحة لم أتمكن من استكمال الرسالة. كم كان هذا تصرفاً سيئاً من جهتي. أليس كذلك؟ لكن اعذرني أيها الغالي ليفا، صدقاً لن أعود إلى ذلك أبداً.

أسدل غانين يده التي فيها الرسالة، استغرق في التفكير وهو يبتسم. كيف يذكر تصعيرتها المرحة تلك، وضحكتها الصدرية الخافتة حين كانت تعتذر. . . هذا التحول من التنهيدة المغمومة إلى نشاط النظرة المتوقد.

«طالما عذبني جهلي بمكان وجودك وبأحوالك. -كتبت تقول له في الرسالة ذاتها. -الآن ينبغي ألا يقطع هذه الخيط الصغير الذي امتد بيننا. أريد أن أكتب، أن أسأل عن الكثير الكثير، لكن أفكاري تتشوش. لقد رأيت وعانيت الكثير من الحزن خلال هذا الوقت. اكتب، اكتب لي بحق الله أكثر وأطول. والآن أتمنى لك كل، كل خير. كان بودي أن أودعك بحميمية أكبر، لكن لعلي فقدت خلال هذه الفترة الطويلة مقدرتي على ذلك، لعل شيئاً آخر يمسكني؟

كان مفعماً طوال أيام بعد استلام الرسالة بسعادة راعشة. لم يكن بقادرٍ أن يفهم كيف استطاع أن يفترق عن ماشينكا. كان لا يذكر سوى خريفهما الأول، – فكل ماعداه كان يبدو له شاحباً، غير ذي شأن، – عذاباتهما وخلافاتهما تلك.

كانت تثقل عليه العتمة الساجية والبريق النسبي للبحر الليلي، والسكون المخملي لممرات أشجار السرو الضيقة، ولمعان القمر على أرياش المغنوليا.

كان الواجب يستبقيه في يالطا، – كان يجري الإعداد لصراع عسكري، لكن كانت تنتابه بين الحين والحين لحظات قصيرة يعزم فيها على التخلي عن كل شيء والمضي بحثاً عن ماشينكا في قرى روسيا الصغرى.

وكان شيء ما رائع ومؤثر في هذا التجوال للرسائل عبر روسيا المخيفة – كما في فراشة كرنب تطير عبر خندق. تأخر كثيراً جوابه على الرسالة الثانية، ولم يكن بوسع ماشينكا أن تفهم بأي شكل من الأشكال ماوقع – فقد كانت متيقنة أن ليس أمام رسائلهما تلك الحواجز المألوفة حينذاك.

«تستغرب طبعاً أني أكتب لك رغم صمتك، لكني لا أعتقد، ولا أريد أن أعتقد أنك لن ترد الآن أيضاً على رسالتي. إنك لم ترد لا لإنك لم تُرِدْ إنما لمجرد أنك... يعني... لم تتمكن، لم يكن لديك الوقت أو... قل لي يا ليفا، أليس يُضْحكك أن تتذكر الآن كلماتك من أن حبك لي هو حياتك، وإذا راح الحب راحت الحياة... آه كيف يحول كل شيء ويزول. هل بودك أنت أن تستعيد كل ما كان؟ اليوم لا أدري، أشعر بكآبة زائدة...

لكن اليوم هو ربيع، والسنط اليوم

يُعرض عند كل خطوة.

وسأحمله اليك، إنه هش كالأحلام...

قصيدة جيدة، لكني لا أذكر مطلعها ولا خاتمتها، ولمن هي لا أذكر أيضاً. الآن سوف انتظر رسالتك. لا أدري كيف أودعك. لعلي اقبلك. لكن يُفْترض..

وبعد اسبوعين أو ثلاثة وصلت رسالة رابعة.

«سررتُ لاستلامها يا ليفا. رسالة لطيفة، لطيفة بشكل.. أجل لا يجوز أن ننسى أننا نحب بعضنا بعضا، نحب حباً جماً ومشرقاً. تقول إنك مستعد أن تضحي بمستقبلك من أجل لحظة، لكن الأفضل أن نلتقي وتختبر نفسك.

ليفا، إذا أتيت مع هذا، فاتصل من المحطة بمركز هاتف الزيمستفو واطلب الرقم ٣٤. من المحتمل أن يرد عليك أحدهم بالألمانية: مستوصف عسكري ألماني. إطلب إليه أن يناديني.

البارحة كنت في المدينة، «تماجنتُ» قليلا، أبهجتني كثرة الموسيقا والأضواء والأنوار. كان هناك سيد مضحك جداً ذو لحية صفراء أخذ يغازلني ويدعوني «أميرة الحفلة». أما اليوم فملل ملل. شيء مؤسف أن الأيام تمضي وتمضي هكذا دون غاية، وبغباء. مع أنها أفضل وأحسن السنوات. يبدو أني سأتحول قريباً إلى «منافقة». لكن لا، هذا لا ينبغي أن يكون.

سألقي عني أغلال الحب
وأحاول أن أنسى نفسي
أترعوا أكواب الخمر
ودعوني أشرب من الخمر حتى السكر
شيء لطيف، إيه!

أجبني فور استلامك رسالتي. هل ستأتي إلى هنا لتلقاني؟ غير ممكن؟ وماذا باليد. . . لكن ربما؟ أيّ غباوة كتبت: أن تجيء لتراني فقط. أي غرور هذا. أليس كذلك؟

قرأت للتو في مجلة قديمة قصيدة جيدة «أنتِ درتي الصغيرة الشاحبة» لكرابو فتسكي. أعجبتني جداً. اكتب لي كل شيء، كلَ شيء. أقبّلك. إيه قرأت أيضاً– شيئاً لبودتياغين:

« فوق طرف الحرش يسطع البدر،
انظري كيف تلمع مويجات النهر».

«الغالي بودتياغين، – ابتسم غانين. إيه غريب. . . ما أغرب هذا يا إلهي. . . لو قيل لي إذاك إني سألتقي به بالذات. . . ».

فض الرسالة الأخيرة وهو يبتسم ويهز رأسه. كان استلمها عشية ذهابه إلى الجبهة. كان الوقت فجر يوم بارد من كانون الثاني، وكان يشعر بالغثيان فوق ظهر السفينة بفعل قهوة الشعير.

«ليف أيها الغالي، يا فرحتي، كم انتظرت، كم أردت هذه الرسالة. كان شيئاً مؤلماً ومؤسفاً أن تكتب وفي الآن نفسه تمسك نفسك داخل رسائل. أو حقاً عشتُ هذه السنوات الثلاث بدونك وكان هناك مانعيش به ومانعيش لأجله؟

أحبك. وإذا عدت سأنهكك بقبلاتي. هل تذكر:

تحدثوا واحكوا أني أقبل الطفل ليفا
قدر ما استطيع ،
وأني احتفظ له من لفوف
بخوذة نمساوية كهدية
واكتبوا لأبيه على حدة . . .

يا إلهي أين هي – كل هذه الأشياء البعيدة ، المشرقة ، اللطيفة . . . أشعر مثلك تماما أننا سنلتقي ، لكن متى ، متى؟

أحبك . تعال . رسالتك أفرحتني حتى اني لا استطيع حتى اليوم أن أعود إلى رشدي من فرط السعادة . . . »

–« السعادة»– ردد غانين بصوت خافت وهو يطوي الرسائل الخمس كلها في رزمة متسقة . – أجل ، هذه هي السعادة . بعد أثنتي عشرة ساعة سوف نلتقي .

تجمد وقد تولته أفكار هادئة ومدهشة : لم يكن يشك في أن ماشينكا ماتزال تحبه حتى الآن . كانت رسائلها الخمس على راحته . وكانت ظلمة تامة وراء النافذة . أزرار الشنطتين كانت تلمع ، وكانت تخيم رائحة غبار خفيفة موحشة .

كان مايزال في جلسته تلك حين ترددت أصوات وراء الباب ، وبغتة اندفع ألفيروف إلى داخل الغرفة دون أن يتوقف أو يطرق الباب .

– آه ، العفو ، قال دون ارتباك خاص . – لا أدري لم ظننت أنك سافرت .

كان غانين يتطلع إلى لحيته الصفراء بنظرة غائمة وهو يعبث بأصابعه بالرسائل المطوية . وظهرت ربة النزل عند الباب .

– ليديا نيقولا يفنا ، – أردف ألفيروف وهو يهز رقبته ويروح ويجيء في الغرفة بشيء من الوقاحة . –هذه الموسيقا يجب التخلي عنها كيما أفتح باب غرفتي .

حاول أن يزيح الخزانة ، تنحنح ونكص عاجزاً .

– هيا، أنا أفعل هذا، – اقترح غانين بمرح، ونهض بعد أن دس المحفظة السوداء في جيبه، واقترب من الخزانة وتفل في كفه.

﴿ ١٤ ﴾

كانت القطارات السود تقعقع وترجّ نوافذ البيوت. وكانت تتصاعد بقوة جبال من الدخان أثارتها حركة أكتاف وهمية تلقي عنها بأحمالها لتخفي سماء الليل المزرقة قليلاً؛ كانت السطوح تشتعل تحت القمر حريقاً معدنياً أملس؛ وكان طيف أسود صاخب يصحو تحت الجسر الحديدي حين كان يقعقع فوقه قطار أسود ينسل بالطول على شكل سياج من نور. هذا العجيج المزمزم والدخان العريض كانا كأنما يقطعان البيت المتأرجح بين الهاوية حيث كانت تلمع خطوط الحديد التي مدها الظفر القمري وشارع المدينة ذاك الذي يقطعه على ارتفاع قليل جسر مسطح ينتظر الرعد الدوري للعربات من جديد. كان البيت كشبح بالوسع حشر اليد وتحريك الأصابع من خلاله.

نظر غانين إلى الشارع وهو واقف عند النافذة في غرفة الراقصين: كان الاسفلت يلمع لمعاناً قاتماً، وكان أناسٌ سود مضغوطون من فوق يخطون هنا وهناك، يضيعون في الظلال ليعودوا يلوحون في الضوء المنعكس المائل للواجهات. وفي البيت المقابل، خلف نافذة مكشوفة وفي وهدة كهرمانية مشرقة كانت تُرى شرارات بلورية وأُطر مذهّبة. ثم أغلق ظلٌّ أسود أنيق الستائر.

استدار غانين. كان كولين يمد له يده بقدح تترجرج فيه الفودكا.

كان في الغرفة ضوء شاحب كأنما آتٍ من وراء القبر لأن الراقصين المتفننين لفا المصباح بقطعة حرير ليلكية. وفي الوسط، على الطاولة كانت القناني ذات لمعة ضاربة إلى البنفسجي، والزبدة تبرق في علب السردين المفتوحة، وكانت

الشوكولاته موزعة في قطع ورق فضية، وكانت هناك فسيفساء من فصوص السجق وفطائر لحم ملساء.

إلى الطاولة كان يجلس: بودتيا غين شاحباً متجهماً مع خرزات عرق على جبينه الصارم، وألفيروف بربطة عنق جديدة لماعة، وكلارا في ثوبها الأسود الذي لا يتبدل كامدةً محمرة بفعل ليكيور البرتقال الرخيص.

كان غورنو تسفيتوف يجلس على حافة السرير دون سترة، في قميص حريري وسخ مفتوح الياقة يدوزن غيتاراً الله أعلم من أي حصل عليه. كان كولين يتحرك طول الوقت، يسكب الفودكا، اللكيور ونبيذ الراين الباهت، ووركاه الغليظان يهتزان على نحوٍ مضحك بينما كان هيكله النحيل المشدود بسترة زرقاء يكاد لا يتحرك لدى المشي.

- مالك لا تشرب شيئاً؟ -ألقى بسؤال العتب المألوف ماطاً شفتيه ورفع إلى غانين عينيه الرقيقتين.

- ولماذا لا أشرب؟ -قال غانين وهو يجلس على رف النافذة ويتناول من يد الراقص المرتعشة قدحاً خفيفاً بارداً. أفرغ القدح في فمه وأدار نظره في الجالسين حول الطاولة. الجميع كانوا صامتين. حتى ألفيروف كان في غاية الاضطراب - أنْ هاكم. بعد ثماني تسع ساعات تصل زوجته - بحيث كان عاجزاً عن الثرثرة كعادته.

- الغيتار جاهز، - قال غورنو تسفيتوف بعد أن فتل برغي الدسْتان وشد الوتر. وأخذ يعزف، ثم أهْمد بكفه طنيناً أخن. -مالكم لا تغنون أيها السادة؟ إكراماً لكلارا. تفضلوا. كالزهرة الفواحة. . .

أخذ يعزف من جديد وقد وضع رجلاً على رجل ونكس رأسه القاتم جانبا.

انثنى ألفيروف، وهو يبتسم ابتسامة عريضة لكلارا ويرفع قدحه بجسارة مصطنعة، إلى الخلف على كرسيه- وكاد يسقط إذ كان الكرسي دواراً دون مسند، وبدأ يغني بصوت غليظ مُتَعَمَّد مصطنع، لكن أحداً لم يردد معه.

قرص غورنو تسفيتوف الأوتار وصمت. بات الجميع في حرج.

-آه، مغنون. . . - تنحنح بودتياغين في انقباض وهو يتكىء بمرفقه على الطاولة ويهز رأسه المسنود. كان في حالة سيئة: التفكير في جواز السفر المفقود كان يختلط بشعور انحباسٍ ثقيل في صدره. -لا يجوز أن أشرب الخمر، هذا كل ما في الأمر، - أردف بتجهم.

- لقد قلت لك، -ردت كلارا بصوت خافت. -انت يا انطون سيرغيينتش كطفل رضيع.

- ما بالكم لا أحد منكم يأكل ولا يشرب. . . -ناس كولين بورِكيه وهو يدلف حول الطاولة. وأخذ يملأ الأقداح الفارغة. كان الجميع صامتين. الأمسية، على الأرجح، لم تكن موفقة.

قفز غانين، الذي استمر حتى الآن جالساً على رف النافذة يرمق بابتسامة خفيفة ساخرة متأملة بريق الطاولة البنفسجي والوجوه المضاءة على نحوٍ غريب، إلى أرض الغرفة وأطلق ضحكة واضحة.

- صبّ، يا كولين، لا تَبْخَلْ، -قال وهو يقترب من الطاولة. - لألفيروف عبىء الكأس أكثر. غداً الحياة تتبدل. أنا لن أكون هنا غدا. هيا، دفعةً واحدة. لا تنظري إلي، يا كلارا، كأيل جريح. رُشّ لها بعض الليكيور. وأنت أيضاً يا انطون سيرغييفتش تحرك، لا نفع في تذكر جواز السفر، سيكون هناك جواز سفر آخر، وأفضل من القديم. هلا رويت لنا بعض الشعر. آه، بالمناسبة. . .

- يمكنني أن آخذ هذه القنينة الفارغة؟ -قال ألفيروف على حين غرة وتلألأ وميض شبقٌ في عينيه المتهيجتين المبتهجتين.

- بالمناسبة، - كرر غانين وهو يقترب من العجوز من خلف ويسدل يده على كتفه الرخو - أنا أذكر بعض أشعارك يا انطون سيرغييفتش. الحرش. . . القمر. . . هكذا، على ما يظهر؟ . . أدار بودتياغين إليه وجهه وابتسم بتمهل:

- من التقويم عرفتَها؟ كانوا يحبون كثيراً كتابة أشعاري في التقاويم. على القفا، فوق الوجبة اليومية.

- ياسادة، يا سادة، ما الذي يريد أن يفعله! - صاح كولين وهو يشير إلى ألفيروف الذي فتح النافذة على مصراعيها ورفع القنينة فجأة يسددها إلى الليل الأزرق.

دعوه، - انفجر غانين ضاحكاً، - دعوه يجن جنونه...

كانت لحية ألفيروف القصيرة تلمع، وتفاحة حلقه تنتفخ، وشعره النادر على يافوخه يتحرك بفعل الهواء الليلي. لوح بيديه بعنف وتجمد، ثم وضع القنينة على الأرض في حركة احتفالية.

انفجر الراقصان يقهقهان.

جلس ألفيروف إلى جانب غورنوتسفيتوف وخطف منه الغيتار وأخذ يحاول العزف. كان سرعان ما يثمل.

- كلارا تشكا جد رصينة، -قال بودتياغين بجهد. - هؤلاء الآنسات كتبن لي في وقت من الأوقات رسائل عاطفية جداً. وهي الآن لا تريد حتى مجرد النظر إلي.

- أنت كف عن الشرب من فضلك، -قالت كلارا وفكرت أنه لم يسبق لها في حياتها أن كانت حزينة كما هي اليوم.

ابتسم بودتياغين بجهد وربت على كتف غانين.

- هاكم منقذ روسيا العتيد. إرو لنا أي شيء يا ليفوشكا. أين تسكعت، كيف حاربت؟

- وهل هذا ضروري؟ -قطب غانين في طيبة قلب.

- لابأس في هذا. إني أشعر بضيق. متى غادرت روسيا؟

- متى؟ إيه، كولين. خذ من هذا السائل اللزج. لا، ليس لي بل لألفيروف. تمام. إخلطه.

﴿ ١٥ ﴾

كانت ليديا نيقولايفنا الآن في سريرها. فقد رفضت بذعرٍ دعوة الراقصين، وها هي الآن تستلقي في نومة عجائزية خفيفة تتسرب اليها قعقعة القطارات على شكل خزائن ضخمة مليئة بأوانٍ مهتزة. كان نومها ينقطع من حين لآخر، وإذاك كانت تسمع بغموضٍ الأصوات في الغرفة السادسة؛ كان غانين يتراءى لها في الحلم على نحو خاطف، ولم يكن بوسعها على الإطلاق أن تدرك في نومها من هو ومن أين. فهيأته حتى في أوقات اليقظة كانت محاطة بالغموض. وهذا أمر طبيعي: فهو لم يحدث أحدا عن حياته وعن أسفاره ومغامراته في السنوات الأخيرة، ثم إنه هو نفسه كان يتذكر هروبه من روسيا كأنما من خلال حلم أشبه ما يكون بضباب بحري يكاد لا يومض.

لعل ماشينكا استمرت تكاتبه في تلك الأيام- في مطلع العام التاسع عشر- حين كان يحارب في شمال القرم، لكنه لم يستلم هذه الرسائل. ترنحت «بيريكوب» وسقطت. نُقل غانين الذي أصيب برض في رأسه إلى سيمفيروبول، وبعد اسبوع وجد نفسه، وهو المريض والخامل، المقطوع الصلة بوحدته التي تراجعت إلى فيودوسيا، رغماً عنه في تيار مجنون وساهٍ من انسحاب المدنيين. كان ربيع القرم قد أخذ يزهر في وحشة وروعة في الحقولً وعلى سفوح مرتفعات إنكيرمان حيث كانت تلوح في وقت من الأوقات السترات الرسمية القرمزية لجنود الملكة فكتوريا في دخان المدافع الصغيرة. كان الطريق اللبني الأبيض العريض يمتد وهو يعلو ويهبط في سلاسة، وكان غطاء السيارة المفتوح يهتز وهو يقفز فوق الحفر- وسرعان ما انسكب الإحساس بالسرعة مع الإحساس بالربيع والمدى المفتوح والتلال الزيتونية الشاحبة بهجةً رقيقة نُسي معها أن هذا الطريق السهل يؤدي بعيداً عن روسيا.

وصل إلى سيفاستوبول وهو ما يزال مفعماً بهذه البهجة وهبط، بعد أن ترك حقيبته في فندق «كيسْت» ذي الحجارة البيض حيث كانت الجلبة والضوضاء غير عاديتين، وهو ثمل من الشمس الضبابية ومن ألم غائم في رأسه، قرب أعمدة الرواق الدُوري الشاحبة وعلى الطبقات الغرانيتية للدرجات، متوجهاً إلى رصيف «غراف» ورنا ببصره طويلاً ودون أي فكرة عن النفي إلى ألق البحر الأزرق الذائب ثم صعد من جديد إلى الساحة حيث ينتصب نخيموف الرمادي في سترة بحرية طويلة ممسكاً بأنبوب بصري، وبعد أن مضى متثاقلاً في الشارع الأبيض، المغبر، حتى القلعة الرابعة أخذ يتأمل «البانوراما» الزرقاء المائلة إلى الرمادي حيث الأسلحة القديمة الحقيقية والأكياس والشظايا المنثورة عمداً والحصى الحقيقي كأنما حصى السيرك وراء الدرابزين الدائري كانت تنقلب كلها إلى لوحة رمادية زرقاء ناعمة خانقة قليلا تلف بسطة للمشاهدين وتهيج العين بحدها الذي لا يدرك.

هكذا بقيت سيفاستوبول في ذاكرته- ربيعيةً، مغبرة، يتملكها قلق مبهم ناعس وغير حي.

وفي الليل، ومن على ظهر السفينة هذه المرة، كان يرى إلى الخراطيم البيض الخاوية للمصابيح الكاشفة تنتفخ في السماء فوق الخليج ثم تهبط من جديد، وإلى الماء الأسود يلمع أملس تحت القمر، وإلى طرّاد أجنبي يقف بعيداً في ضباب الليل وكله يشتعل بالأضواء مستنداً إلى الأعمدة الذهبية السيالة لصورته المنعكسة.

الباخرة التي وجد نفسه فيها كانت يونانية، قذرة؛ على ظهرها كان هاربون فقراء من إيفباتوريا، حيث عرجت الباخرة صباحاً، ينامون مستلقين بعضهم إلى جانب بعض. استقر غانين في صالة الأكل والراحة حيث كان مصباح يهتز بتثاقل وتنتصب على طاولة طويلة بالات كأنها بصلات ضخمة باهتة.

وحلّتْ بعدها أيام بحرية حزينة جد بديعة: كان الزبد الفائر المُواجه يضم بجناحيه الأبيضين المنزلقين كل شيء، كان يضم مقدمة السفينة التي كانت

تقطّعه، وكانت الأطياف الخضر للمستندين بمرافقهم إلى جوانب السفينة تتلامح بضعف على الانحدارات المضيئة للأمواج البحرية.

جنزير الدفة الصدىء كان يصر، ونورسان يحومان حول المدخنة، وكان منقاراهما البليلان حين يسقطان في دائرة شعاع يشتعلان كأنهما من ألماس.

بكى إلى جانبه طفل يوناني غليظ الرأس فأخذت أمه توبخه في نزق كيما تهدئه بأي شكل كان. وانسل إلى ظهر السفينة وقاد الآلات البخارية أسود كله، ذاعينين مطليتين بغبار فحم حجري وياقوتة حمراء اصطناعية في سبابته.

هذه الأشياء التافهة وليس الحنين إلى الوطن هو ما تذكره غانين، كأنما عيناه وحدهما هما اللتان كانتا تعيشان بينما قلبه توارى.

في اليوم التالي بانت اسطمبول القاتمة في المساء البرتقالي واختفت ببطء في عتمة الليل الذي سبق الباخرة. عند الفجر صعد غانين إلى مركز القيادة: كان شاطىء سكوتاريا الأسود الأربد يزرق بتؤدة. كان انعكاس القمر يضيق ويشحب. وزرقة السماء الليلكية كانت تستحيل في الشرق حمرةً خالصة، وكانت اسطمبول تخرج من الظلمة وهي تشرق بلطف. ولمع على طول الشاطىء خط حريري من التموجات الخفيفة؛ عبر زورق أسود وطربوش أسود بصمت جانبا. الآن كان الشرق يبيضّ، وهبت نسمة هواء، ومرت بالوجه دغدغة مالحة؛ في مكان ما على الشاطىء أُطلقت الأبواب إيذاناً بطلوع الفجر، ومرق فوق الباخرة نورسان أسودان كالغراب، ومع بقبقة المطر الخفيف قفز سرب من الأسماك على شكل شبكة من الحلقات الآنيّة وبعد ذلك رسا قارب صغير؛ كان ظل تحته على الماء يبسط ويشد المجسات. لكن فقط حين نزل غانين إلى الشاطىء ورأى عند المرفأ تركيّاً أزرق ينام فوق كومة ضخمة من البرتقال، إذاك فقط أحسّ إحساساً واضحاً وحاداً كم هي بعيدة عنه كتلة الوطن الدافئة وماشينكا تلك التي أحبها إلى الأبد.

وهذا كله انبسط في ذاكرته ولمع فيها متموجاً، ثم انكمش من جديد في كتلة دافئة حين سأله بودتياغين بارتباك وجهد:

– منذ فترة طويلة تركت روسيا؟

– منذ ست سنوات، –أجاب غانين باختصار، ثم فكر في سره وهو يجلس في الركن تحت الضوء البنفسجي الساجي الذي يغمر سماط الطاولة المُزاحة والوجهين المبتسمين لكولين وغورنو تسفيتوف اللذين كانا يرقصان وسط الغرفة بصمت وسرعة: «أي سعادة. وهذا سيكون غدا، لا بل اليوم، فالوقت جاوز منتصف الليل. لايمكن أن تكون ماشينكا تغيرت طوال هذه السنين، فما زالت العينان التتريتان تضحكان وتتلألآن كالسابق. سيحملها إلى مكان بعيد وسوف يعمل دون كلل من أجلها. غدا سيأتي شبابُه كله، روسياه كلها.

كان كولين، الذي وضع يده على خاصرته وراح يهز رأسه المرفوع قليلا إلى الخلف، يدور منزلقاً تارة وخابطاً بكعبي حذائه ملوحاً بمنديله تارة أخرى حول غورنو تسفيتوف الذي شرع، بعد أن جلس، يبسط قدميه بلباقة وجرأة متزايدتين وأخذ يدور أخيراً على رجله المعقوفة. كان ألفيروف الذي بلغ به الثمل أشده يتمايل ببشاشة. كانت كلارا تحدق بقلق في الوجه الرمادي المتعرق لبودتياغين الذي كان يجلس جلسة جانبية على السرير ويحرك رأسه بتشنج بين الحين والحين.

– أنت في وضع غير جيد يا انطون سيرغييفتش، – همست كلارا. –أنت بحاجة للاستلقاء في سريرك، الساعة الآن الثانية...

... أوه، كم سيكون هذا بسيطاً: غدا، لا، اليوم سيراها؛ لو أن ألفيروف يتحطم تماما. لم يبق إلا ست ساعات. الآن هي تنام في العربة، في العتمة تمرق أعمدة الهاتف، أشجار الصنوبر، المنحدرات المتراكضة... كم يخبط هؤلاء الشباب المملون. أتراهم ينتهون قريبا من رقصهم... أجل، ببساطة مدهشة... في أفعال القدر هناك أحيانا شيء ما عبقري..

– وأنا أيضا ذاهب لأستلقي، – قال بودتياغين بصوت أصم ونهض بعد أن تنهد تنهيدة ثقيلة.

- إلى أين أيها المثل الأعلى للرجل؟ قف. . . اجلس معنا لحظة أخرى، -غمغم ألفيروف بابتهاج.

- اشرب واسكت، -استدار غانين نحوه ثم اقترب بسرعة من بودتياغين. -استند إلي يا انطون سيرغييفتش.

نظر إليه العجوز نظرة غائمة، حرك يده كأنما يستهدف ذبابة، وفجأة ترنح وهو يطلق صيحة نسرٍ خفيفة وانكب على وجهه.

تمكن غانين وكلارا من إسناده، لاب الراقصان حوله. وتأتأ ألفيروف، الذي مازال بوسعه أن يحرك لسانه اللزج، بلا مبالاة مخمورة: «هاكم، هاكم إنه يموت».

- لا تَدُرْ عبثا يا غورنو تسفيتوف، - قال غانين. - أمسكْ رأسه. كولين، ها هنا اسنده. لا، هذه يدي. إلى أعلى. لا تحملق فيّ. إلى أعلى أقول لك. افتحي الباب يا كلارا.

حمل ثلاثتهم العجوز إلى غرفته. وكأنما استعد ألفيروف للحاق بهم وهو يترنح، لكنه ما لبث أن لوح بيده بفتور وجلس إلى الطاولة. سكب بيد مرتعشة بعض الفودكا لنفسه ثم سحب الساعة النيكلية من جيب صدرته ووضعها أمامه على الطاولة.

- ثلاث، أربع، خمس، ست، سبع، ثمان، - مر ألفيروف بإصبعه على الأرقام الرومانية وتجمد وهو يلوي رأسه ويتابع بعين واحدة عقرب الثواني.

في الممر أخذ الكلب ينبح نباحاً متقطعاً رقيقاً ومضطرباً. قطب ألفيروف حاجبيه:

- كلب جربان. . . لو يُمْعس.

بعد قليل أخرج من جيبه الأخرى قلم الكوبيا ورسم بطلائه رقعه ليلكية على البلورة فوق الرقم ثمانية.

«قادمة، قادمة، قادمة. . . » - فكر في سره على ايقاع التكتكة.

قلّب عينيه في أنحاء الطاولة، انتقى قطعة شوكولاته وتفّها للحال. التطمت الكتلة البنية بالجدار.

- ثلاث، أربع، خمس، سبع، - أخذ ألفيروف يعد من جديد، وغمز باتجاه ميناء الساعة وهو يبتسم ابتسامة عكرة مغتبطة.

﴿ ١٦ ﴾

في الخارج كان الليل قد سكن. وفي الشارع كان عجوز محدودب الظهر في لفاعٍ أسود يمشي وهو يطرق بعصاه، وينحني وهو يئن حين كان طرف عصاه يخبط عقب سيجارة. بين الحين والحين كانت تمرق سيارة، وعلى فترات أقل كانت عربة ليلية ترتج وهي تطقطق بحدواتها بوهنٍ. كان سيد سكران ذو قبعة سوداء ينتظر في الركن الحافلة الكهربائية، مع أن الحافلة كانت قد توقفت من ساعتين عن التحرك. بضع مومسات كن يتسكعن جيئة وذهابا وهن يتثاءبن ويثرثرن مع سادة مشبوهين في معاطف مرفوعة الياقات. نادت إحداهن كولين وغورنو تسفيتوف اللذين تجاوزاها فيما يكاد يكون ركضاً لكنها سرعان مالوت كشحها عنهما بعد أن ألقت نظرة مهنية محترفة على وجهيهما الشاحبين، الأنثويين.

تولى الراقصان أمر إحضار دكتور روسي من معارفهما إلى بودتياغين. وبالفعل عادا بعد نصف ساعة برفقة سيد ناعس ذي وجه حليق جامد. مكث نصف ساعة ثم غادر بعد أن أطلق عدة مرات صوتاً كصوت المص لكأنما هناك ثقب في سنّه.

كان هدوء كبير يخيم الآن على الغرفة غير المضاءة. كان يرين ذلك الصمت الخاص، الثقيل، الأصم الذي يحدث حين يجلس عدة أشخاص في صمت حول

مريض. أخذ النور يضيء، وأخذ الهواء في الغرفة كأنما يحول لونه ببطء- وبدا جانب وجه غانين المحدق في السرير بنظرة ثابتة منحوتاً من حجر أزرق شاحب، وعند طرف السرير كانت كلارا تجلس في أريكة أزرقت قليلاً في موجة الفجر، وتنظر بنفس الاتجاه دون أن تحول ولو للحظة عينيها اللتين تكادان لا تلمعان. وعلى مبعدة، على ديوان صغير جلس غورنو تسفيتوف وكولين جنباً إلى جنب -وكان وجهاهما أشبه ببقعتين شاحبتين.

كان الدكتور يهبط الدرج خلف القوام الأسود للسيدة دورن التي اعتذرت منه لكون المصعد معطلاً وهي تخشخش خشخشة خافتة برزمة المفاتيح. وحين بلغا أسفل الدرج فتحت الباب الثقيل وخرج الدكتور، وقد رفع قبعته على الماشي، إلى ضباب الفجر المائل إلى الزرقة.

أغلقت العجوز الباب بإحكام ومضت إلى فوق وهي تتغطى بشال أسود محبوك. كان الضوء على الدرج ينبعث أصفر وبارداً. وصلت إلى البسطة وهي تخشخش خشخشة خافتة بالمفاتيح. وانطفأ الضوء على الدرج.

في الممر صادفت غانين الذي كان يشق الباب بحذر وهو خارج من غرفة بودتياغين.

- الدكتور وعد بالعودة صباحاً، - همست العجوز. -كيف حاله الآن، - أفضل؟

هز غانين كتفه:

- لا أعرف. يبدو أنْ لا. تنفسه... صوت غريب... شيء مرعب سماعهُ.

تنهدت ليديا نيقولا يفنا ومضت في ذعر إلى غرفتها. صوبت كلارا وكلا الراقصين بحركة متماثلة إليها عيونهم الوامضة بشحوب ثم عادوا وشخصوا بهدوء إلى السرير. دفعت نسمة خفيفة إطار النافذة نصف المفتوحة.

أما غانين فقطع الممر على أطراف أصابعه وعاد إلى الغرفة حيث كانت الحفلة قبل قليل. وكما كان يفترض كان ألفيروف مازال جالساً إلى الطاولة. كان وجهه قد انتفخ وأخذ يشع بريقاً رمادياً بفعل امتزاج الفجر والمصباح المرتب

مسرحياً؛ كان ينكس الرأس بفعل النعاس، يتجشأ بين الحين والحين. وعلى بلور الساعة أمامه كانت تتلألأ قطرة فودكا وقد ماع فيها أثر ليلكي من قلم الكوبيا. كان قد بقي حوالي اربع ساعات تقريباً.

جلس غانين قربه وتأمل طويلاً غفوته الثملة وهو يقطب حاجبيه الكثيفين ويسند صدغه بقبضته مما جعل الجلد ينجذب قليلا والعين تنحرف.

اختلج ألفيروف بغتة وأدار إليه وجهه ببطء.

- أما آن لك أن ترقد، يا عزيزي الكسي ايفانوفتش، - قال غانين بوضوح.

- كلا، - قال ألفيروف بجهد، ثم كرر بعد أن فكر وكأنه يحل مسألة صعبة: -كلا.

أطفأ غانين الضوء غير اللازم وأخرج علبة السجائر وأشعل واحدة. وبفعل برد الفجر الشاحب ونفحات التبغ كأنما صحا ألفيروف قليلا.

فرك جبينه براحته، تطلع حوله، ومد إلى القنينة يدا حازمة إلى حد ما. لكن يده توقفت في منتصف الطريق، هز رأسه ثم توجه إلى غانين بابتسامة ذاوية: - لا حاجة... إلى هذا. ماشينكا قادمة.

ثم تمهل قليلا وشد غانين من كمه.

- إي.. أنت.. ماسمك.. ليب ليبوفتش... هل تسمع... ماشينكا.

نفث غانين الدخان، حدق في وجه ألفيروف، - التقط كل شيء على الفور: فم مبلول نصف مفتوح، لحية صغيرة بلون الزبل، وعينان مائيتان طارفتان...

- ليب ليبوفتش اسمعني فقط، - اهتز ألفيروف وهو يمسكه من كتفه. - ها أنا ذا مهشم، محطم، كالحطبة... أنت نفسك، لك الشيطان، أسكرتني... كلا، - ليس هذا بتاتاً ما.. كنت أحدثك عن البنت الصغيرة..

- يلزمك أن تغفو يا الكسي ايفانوفتش.

- كانت هناك فتاة، هذا ماكنت أقول. كلا، أنا لا أتكلم عن الزوجة.. لا تظن ذلك.. زوجتي طاهرة.. كم سنة مضت وأنا بدون زوجة.. وهكذا، من فترة

قريبة، لا من فترة بعيدة. . لا أذكر متى. . أخذتني فتاة إليها. . تشبه الثعلب. . رذالة وأي رذالة. . ومع هذا فشيء لذيذ. . والآن ماشينكا قادمة. . هل تدرك معنى هذا، هل تدرك أم لا؟ أنا الآن محطم، لا أذكر ما هو المعمْ. . العما. . العمودي، وعما قريب ستحضر ماشينكا. . لماذا حصل هذا. . وعلى هذا الشكل؟آ؟ إني أسألك! إيه أنت أيها البلشفي. . فسر لي، هل تستطيع؟

دفع غانين عنه يده برفق. انحنى ألفيروف وهو يهز رأسه فوق الطاولة، زحف مرفقهُ وهو يكرمش السماط ويقلب الأقداح. وزحفت الأقداح والأطعمة والساعة إلى أرض الغرفة. . .

- عليك بالنوم، - قال غانين وبدفعة واحدة قوية أوقفه على قدميه.

لم يقاوم ألفيروف، لكنه كان يهتز بحيث كان غانين يسدد خطاه بصعوبة.

حين وجد نفسه في غرفته ابتسم ابتسامة عريضة وناعسة وتهاوى على السرير ببطء. لكن على حين غرة شاع الذعرُ في وجهه.

- المنبّه. . . - غمغم وهو يستوي قليلاً. -ليب، هناك المنبّه على الطاولة. . . اربطه على منتصف الثامنة.

- حسنا، - قال غانين وأخذ يدير العقرب. وضع العقرب على الساعة العاشرة، ثم فكر قليلا ووضعه على الحادية عشرة.

وحين التفت من جديد إلى ألفيروف، كان هذا يغط في النوم مستلقيا على قفاه وملقياً إحدى يديه على نحو غريب.

هكذا ينام في القرى الروسية العاطلون السكارى. طوال النهار كان يلمع القيظ ناعساً، وتسبح عربات خيل محملة عالية وهو ترش الطريق قرب القرية بالحشائش اليابسة في حين كان متسكع يرغي ويزبد ويتحرش بالمصطافات المتنزّهات ويخبط على صدره الرنان مدعيا أنه ابن جنرال، ثم يلقي آخر الأمر بسدارته على الأرض ويستلقي على الطريق بالعرض، ويظل مستلقيا على هذا

النحو إلى أن يترجل فلاح عن عربته. كان الفلاح يجره جانبا ويتابع سيره. ويظل المتسكع في رقدته تلك على طرف القناة كالميت وهو قاعس وجهه الشاحب بينما كانت كتل العربات الضخمة تسبح وهي تتمايل وتنشر الطيب باتجاه القرية عبر الظلال المنقّطة لأشجار الزيزفون الذاهلة.

وقف غانين طويلاً، بعد أن وضع المنبه على الطاولة دون أي صوت، ينظر إلى النائم. ثم استدار بعد وقفته تلك وخشخش بقطع النقود في جيب بنطاله وخرج بهدوء.

في غرفة الحمام العاتمة قرب المطبخ كانت هناك في الزاوية قوالب تحت قماش هبابةٍ. وفي النافذة الضيقة كان الزجاج محطماً، وعلى الجدران كانت تبرز نضوحات صفر، وفوق المغطس الأسود المتقشر كان ينعكس بالتواءٍ قضيب الدوش المعدنيُ. تعرى غانين تماما وظل طوال عدة دقائق يفرك يديه ورجليه القوية، البيض، الزرق العروق. كانت العضلات تشقشق وتلمع، والصدر يتنفس بعمق وانتظام. فتح صنبور الدوش ووقف تحت تيار مروحي جليدي كان يجعله يشعر بتجمد لذيذ في بطنه.

وبعد أن أرتدى ملابسه وقد غشيته كله دغدغة نارية رقيقة جر الشنطتين إلى المدخل محاولاً ألا يحدث أي ضجة ونظر إلى ساعته. كانت السادسة إلاّ عشر دقائق.

ألقى المعطف والقبعة على الشنطتين ودخل بهدوء غرفة بودتياغين.

كان الراقصان ينامان جنباً إلى جنب على الديوان مستندين أحدهما إلى الآخر. وكانت كلارا وليديا نيقولا يفنا تنحنيان فوق العجوز. كانت عيناه مغمضتين ووجهه الذي بلون الطين المتجفف يلتوي بين الحين والحين بتعابير الألم. كان الضوء قد عم تقريبا. وكانت القطارات تشق طريقها بجلجلة ناعسة عبر البيت.

فتح بودتياغين عينيه حين اقترب غانين من رأس السرير. وجد قلبهُ للحظةٍ سندا واهناً في الهوة التي كان ما يزال يهوي فيها. كان بوده أن يقول الكثير -إنه لن يرى باريس وإنه، بالأحرى، لن يرى الوطن، وان حياته كلها كانت غير معقولة

وعقيمةً، وانه لا يفهم لماذا عاش ولماذا يموت. غمغم وقد لوى رأسه جانبا وألقى نظرة ذاهلة على غانين: «هاك. . . بلا جواز» وسرت ابتسامة متشنجة على شفتيه. أغمض عينيه من جديد، ومن جديد امتصته الهاوية وانغرز الألم في قلبه كالإسفين -وبدا له الهواء نعمة خارقة لا تُدرك.

تطلع غانين إلى وجه العجوز وهو يشد بيده البيضاء القوية على حافة السرير وتذكر من جديد تلكم الأمثال الظلية الراعشة للممثلين الروس الصامتين المُلتقطة بالصدفة، الظلال التي بيع الواحد منها بعشرة ماركات والتي الله وحده يعلم أين تتراكض الآن على بريق الشاشة الأبيض. قال في نفسه إن بودتياغين خلف مع هذا شيئا، على الأقل بيتين باهتين من الشعر يتفتحان بالنسبة له، أي غانين، عن وجود دافىء وخالد: هكذا تصبح خالدةً العطور الرخيصة أو اليافطات في شارع عزيز علينا. وبدت له الحياة للحظةٍ في كل الجمال المثير ليأسها وسعادتها- وبات كل شيء عظيما وجد ملغز- ماضيه، وجه بودتياغين المغمور بالضوء الشاحب، الانعكاس اللطيف لإطار النافذة على الجدار الأزرق- وهاتان الإمرأتان في ثوبيهما الغامقين الجالستان الواحدة إلى جانب الأخرى.

ولاحظت كلارا بدهشة أن غانين يبتسم- لكنها لم تستطع أن تفهم ابتسامته.

لمس وهو يبتسم يد بودتياغين التي كانت تكاد لا تتحرك فوق اللحاف، والتفت إلى السيدة دورْن وكلارا.

- إني مغادر، - قال بصوت خفيض. - قد لا نلتقي مرة أخرى، وهذا هو الأرجح. بلغا الراقصين سلامي.

-سأرافقك، - قالت كلارا بصوت خفيض مماثل وأردفت: - الراقصان يغفوان على الديوان.

وخرج غانين من الغرفة. وفي المدخل أخذ الشنطتين، ألقى بالمعطف المطري على كتفه وفتحت له كلارا الباب.

- دمتم بخير وعافية، -قال وهو يخرج مائلاً على جنبه إلى البسطة. -أتمنى لكم كل خير.

توقّف للحظة. البارحة فقط خطر له أنه من الأفضل أن يوضح لكلارا أنه لم يكن يتهيأ لسرقة أي نقود، إنما كان يتأمل صوراً قديمة، لكن لم يكن بمقدوره الآن أن يتذكر ما كان يريد أن يقوله. انحنى وأخذ يهبط الدرج على مهل. كانت تتابعه بنظرها وهي تمسك بمقبض الباب. كان يحمل الشنطتين وكأنهما سطلان، وكانت خطاه الوطيدة تثير في الدرجات أصداء أشبه بدقات قلب بطيء. وحين اختفى وراء استدارة الدرابزون، ظلت طويلا تسمع هذا الطرق الرتيب، المبتعد. وأغلقت أخيرا الباب ووقفت في المدخل. كررت بصوت مسموع: «الراقصان يغفوان على الديوان» -، وبغتة انفجرت في نشيج عنيف وصامت وهي تمر بسبابتها على الجدار.

﴿ ١٧ ﴾

كانت العقارب الثقيلة، الغليظة في ميناء الساعة الضخم المبيضّ بالورب من يافطة الساعاتي تشير إلى الساعة السادسة وست وثلاثين دقيقة. كانت غمامة رقيقة تتورد في الزرقة الخفيفة لسماء لما تدفأ بعد الليل، وكان هناك شيء ما أنيق أناقة غير أرضية في شكلها الممطوط. كانت خطوات المارة النادرين ترن بصفاء مميز في الجو الخالي، وعلى مبعدة كان جزّر بدنيٌ يهتز فوق خطوط الترام. كانت عربة محملة بحزم هائلة من البنفسج ومغطاة حتى نصفها بجوخ مخطط خشن تسير بصوت خافت على طول الطوار: كان التاجر يساعدُ في جرها كلبا كبيراً أمغر كان يندفع بكلّيته إلى الأمام ماداً لسانه، ويحفز كل عضلاته اليابسة الموقوفة على الانسان.

كانت غربان تطير من الأغصان السود لأشجار مخضرة قليلا وهي تخفق بأجنحتها بحفيف هوائي وتحط على الطنف الضيق لجدار قرميدي عالٍ.

كانت الحوانيت ماتزال ترقد خلف المشابك، والبيوت مضاءة من الأعلى فقط، إنما كان من المتعذر التصور أنْ هذا هو الغروب وليس الصباح الباكر. ذلك

أن الظلال كانت تمتد في الجانب الآخر، وكانت تنشأ تمازجات غريبة غير متوقعة للعين التي أَلِفتْ جيدا الظلال المسائية لكنها لم تر الفَجْرية إلا نادراً.

بدا كل شيء موضوعاً لا كما ينبغي، غير ثابت، مقلوباً كما في مرآة. وكما كانت الشمس تعلو شيئاً فشيئاً وكانت الظلال تتفرقً إلى أماكنها العادية، كذلك تماماً كانت حياة الذكريات تلك التي عاشها غانين تضحي مع هذا الضوء الصاحي ما كانته فعلاً- ماضياً بعيداً.

التفت فرأى في آخر الشارع زاوية البيت المضاءة حيث عاش للتو الماضي الغابر وحيث لن يعود أبداً. وكان في انسحاب البيت الكامل هذا من حياته لغز رائع.

كانت الشمس تعلو باستمرار والمدينة تُضاء بالتساوي، والشارع تدب فيه الحياة ويفقد سحره الظلي الغريب. كان غانين يسير وسط الرصيف مؤرجحاً قليلا الشنطتين المرصوصتين بيديه، ويفكر في أنه لم يشعر منذ فترة طويلة أنه معافى وقوي ومستعد لأي كفاح إلى هذا الحد. وكل ما لاحظه بكل هذا الحب النضر -العربات المتسارعة إلى السوق والأوراق الرقيقة التي مازالت متغضنة، والإعلانات المختلفة الألوان التي كان شخص ذو مريول يلصقها على جانب الكشك، - إنما كان هذا كله انقلاباً خفياً، صحوةً له.

توقف في الجنينة الصغيرة قرب المحطة وجلس على نفس المقعد حيث تذكر من فترة غير بعيدة التيفوئيد والمنزل الريفي والإحساس المسبق بماشينكا. بعد ساعة ستصل وزوجها ينام نوم ميت وهو، غانين، يتأهب للقياها.

ولسبب ما تذكر فجأة كيف ذهب ليودع لودميلا وكيف خرج من غرفتها.

خلف الجنينة كان بيت يُبْنى. رأى الغلاف الخشبي الأصفر- هيكل السطح- وقد عبِّئ في بعض الأماكن بالقرميد.

كان العمل بدأ يدور على الرغم من الوقت الباكر. كانت قامات العمال تلوح زرقاء على الغلاف الخفيف في هذه السماء الصباحية. كان أحدهم يتحرك على المتن تماماً بخفة ورشاقة وكأنه يتحفز للطيران.

كان الغلاف الخشبي يموج بلون ذهبي في ضوء الشمس وكان فوقه عاملان أخران ينقلان إلى ثالث قطع القرميد.

كانا يرقدان على قفاهما وعلى خط واحد كما على درج، وكان الأدنى يرفع فوق رأسه قطعة حمراء تشبه كتاباً كبيرا، وكان الوسط يأخذ القرميدة، وبنفس الحركة ينقلها إلى الأعلى وهو ينحرف إلى الوراء تماما ويبسط يديه. هذه التمريرة الكسولة، الرتيبة المتزنة كانت ذات فعل مهدّيء، وهذه اللمعة الصفراء للشجرة الغضة كان فيها من الحياة أكثر مما في أشد الأحلام بالغابر الماضي حيوية. كان غانين يتطلع إلى السماء الخفيفة، إلى السقف المثقب وقد أخذ يشعر بوضوح لا يرحم أن قصته مع ماشينكا انتهت إلى الأبد. لقد استمرت القصة أربعة أيام وحسب ولعل هذه الأيام الأربعة كانت أسعد فترة في حياته. لكنه كان الآن قد استنفد ذكرياته حتى النهاية، وحتى النهاية أُشبع منها، وبقيت صورة ماشينكا مع الشاعر العجوز المحتضر هناك، في بيت الظلال الذي أصبح هو ذاته ذكرى.

وما عدا هذه الصورة ليست هناك ولايمكن أن تكون أي ماشينكا أخرى.

انتظر لحظة استكمال القطار السريع القادم من الشمال عبوره البطيء للجسر الحديدي. عبر القطار الجسر واختفى خلف واجهة المحطة.

إذاك رفع الشنطتين، نادى سيارة أجرة وطلب منها التوجه إلى محطة أخرى في طرف المدينة. اختار قطاراً متوجهاً خلال نصف ساعة إلى الجنوب الغربي من ألمانيا، دفع ثمن البطاقة ربعَ ثروته، وفكر في اضطراب لذيذ كيف سيعبر الحدود دون أي تأشيرات، وهناك فرنسا، البروفنس ومن ثم البحر.

وحين تحرك القطار غفا وقد دفن وجهه في ثنايا المعطف المتدلي من الكُلاّب فوق المقعد الخشبي.

برلين عام ١٩٢٦

٢٠٠٠ ط ١/١٢/١٩٩٩

الطباعة وفرز الألوان بمطابع وزارة الثقافة
دمشق ١٩٩٩

سعر النسخة داخل القطر
١٢٥ ل.س

في الأقطار العربية ما يعادل
٢٥٠ ل.س

To: www.al-mostafa.com